غسلا للعار

☆

للآنسة نازك الملائكة

•

بغداد

☆

« أماه ! » وحشرجةٌ ودموع وسوادُ
وانبجس الدم واختلج الجسم المطعونُ
والشعر المتموّج عشّش فيه الطين
« أماه ! » ولم يسمعها الا الجلاّد
وغداً سيجيء الفجر وتصحو الاوراد
والعشرون تنادي والأمل المفتون

فتجيب المرجة والأزهارْ
رحلت عنا .. غسلاً للعار ..

ويعود الجلاّد الوحشيّ ويلقى الناسْ
« العار ؟ » ويمسح مديته « مزّقنا العارْ »
« ورجعنا فضلاءً ، بيض السمعة ، أحرار »
« يا ربّ الحانة أين الخمر ؟ وأين الكاس ؟ »
« نادِ الغانية الكسلى العاطرة الانفاسْ »
« أفدي عينيها بالقرآن وبالأقدار »
إملأ كاساتك يا جزّار
وعلى المقتولة غسل العار

وسيأتي الفجر وتسأل عنها الفتياتُ
أين تُراها ؟ فيردّ الوحش « قتلناها .. »
« وصمة عار في جبهتنا وغسلناها »
وستحكي قصتها السوداء الجارات
وسترويها في الحارة حتى النخلات
حتى الأبواب الخشبية لن تنساها
وستهمسها حتى الأحجارْ
غسلاً للعارْ .. غسلا للعار

« يا جارات الحارة ، يا فتيات القريه »
« الخبز سنعجنه بدموع مآقينا »
« سنقصّ جدائلنا وسنسلخ أيدينا »
« لتكون ثيابهم بيض اللون ، نقيّه »
« لا بسمة ، لا لفتة ، لا فرحة فالمديه »
« ترقبنا في قبضة والدنا وأخينا »
« وغداً من يدري أي قفارْ »
« ستوارينا غسلاً للعار ؟ »

التعـاطف الرمـزي

بقلم عدنان الذهبي



للفنون وخاصة الادب منها، حيوات متميز بعضها عن بعض ، وعديدة ، ومعروف ناموسها ، تتعاور السيطرة ، بين الفترة والفترة ، على اوجه النشاط الفني ، وخاصة الادبي منه ؛ فيحمل لواءها شرذمة من الفنانين ، والادباء ، يصبغون بصبغتها فنهم ، وادبهم ، ويطبعون بطابعها تجاربهم الفنية والادبية : فيكون تطور وخلق ، ان في الابداع الفني، والادبي نفسه، والذي تتعاقب حيواته، الظهور على مسرح الفنون، وخاصة الادب منها ، تعارض الواحدة منها الاخرى ، او تمهد السابقة منها اللاحقة ؛ او في ما يدور حول هذه الحيوات من نظريات نقدية ، او بلاغية ، او جمالية !!

تلكم حال الفنون وخاصة الادب منها، في تجاربها، وتطوراتها؛ تنبؤك النظرية التطورية بشؤونها النبأ الدقيق ، الامين؛ لا سيما، وهي تقسم كلا من هذه التجارب، والتطورات اقساماً مختلفة ، لكل منها تسميته ، كما ان لكل منها مميزاته ، هي ما يعرف بالمدارس الفنية ، الادبية ، ونماذج شخصياتها ، وتفننها: كالغنائية والابداعية ، او الواقعية؛ والرمزية..وغيرها.. مما يسوره تلاؤم الحياة الفنية ، والادبية ، لمتطلبات التقدم الوضعي ، العلمي، الذي يظل له السبق في حياة الامم والشعوب !!

والرمزية مذهب غنائي ابداعي ، اي لنقل فردي ، ذاتي ؛ الا انه مغالى فيه كل المغالاة !! ظهرت هذه المغالاة التي له في مظهرين اصيلين ، هما الخاصتان الاساسيتان في الرمزية ؛ أحدهما : فكري ، وجداني، هو صورة التجربة الفنية، الادبية التي للرمزية، ازاء العالمين، الوجوديين المتقابلين، والمتعارضين في التجربة الانسانية عامة ، العالم الداخلي المعنوي، والعالم الخارجي، المادي منهما.. واقصد : تجربة التعاطف الرمزي !! وثانيهما : فني ، اسلوبي ، هو الموسيقى التي للاسلوب الرمزي ، المتميز والخاص ايضاً ، هذه الموسيقى التي تساعد الفنان، او الاديب، على تلقين ما للتجربة الرمزية من افكار مادة ، مركزه ، او وجدانات رهيفة ، هاربة ، متموجة !!

وللتجارب الفنية الادبية، التي لمختلف حيوات الفنون، وخاصة الادب منها ، اغراض فنية ، ادبية ، او لنقل بلغة الادب ، او الفنون على العموم ، اناشيد فنية ادبية ، تتميز بها مدرسة عن مدرسة ، من مدارس الادب ، او الفنون عامة ، في حيواتها المختلفة ، وفي تطوراتها المختلفة ايضاً !! والرمزية من حيث انها غنائية ، ابداعية ، او لنقل ذاتية فردية ، تعيد الاناشيد ، او بعبارة اخرى، الاغراض الفنية الادبية، التي للغنائية، او للابداعية وهي: الذات واميالها ، من تغن بالحياة في الدم واللحم والخمور، واللذات من جهة ؛ او من خوف من موت ، والابتعاد عنه ، من جهة ثانية ، وقد تنقلب الآية في هذا النشيد ايضاً ، فيصبح الموت هو المحبوب ، المرغوب فيه !! ومن هذه الاغراض الفنية الادبية ، ايضاً ، المجتمع ، بمختلف نظمه ، كالعائلة ، او الوطن، او الانسانية عامة ، يقف الفنانون ، والادباء منه ايضاً مواقف مختلفة ، متباينة ، فتراهم بين طرفين متغايرين ، بعضهم يكن لهذا

* في اغراض الابداعية ، والرمزية: الذات واميالها ، المجتمع ونظمه ...

* التعاطف الرمزي هو الشعور بالطبيعة ، وقد احالته الرمزية ذوبانا وجدانيا كونيا..

* شيء في تفسير التجربة التعاطفية ، من وجهة النظر الحضارية، والنفسية، والتعبيرية.

(١) التعاطف الرمزي هو التقمص الشعوري الكوني ، المعروف بالالمانية بـ Einfühling وهذه لفظة ابتدعها روبرت فيشر. وقد ترجمت الى الانكليزية بـ Empathie اي التعاطف في او Intropathie التعاطف المتبادل في ؟! إلا ان الفرنسيين يطلقون عليها اسم sympathie symbolique اي التعاطف الرمزي (راجع مبحث التعاطف الجمالي في كتاب مبادىء علم الجمال، لشارل لالو، ترجمة خليل عزيز شطا، دمشق ١٩٥١ ، قدم له عدنان الذهبي) ...

المجتمع ، بمختلف نظمه ، المحبة والغيرية ، يرأف عليه ، ويعمل من اجله ؛ والآخر ساخط عليه ، راغب عنه ، يهيم على وجهه في الارض !! ومن هذه الاغراض الفنية ، الادبية ايضاً، الطبيعة؛ والمقصود من الطبيعة ، هذا الوجود المادي الجميل والمتناسق ، الذي هو بالنسبة للانسان الارض بكل ما لها من سهول او جبال ان بحار او اقمار او كواكب ، وما يتسلسل عليها من فصول ، او ما يتعاقب في سمائها من ليال ونهارات ؛ فتراهم ايضاً ، بالنسبة للطبيعة بين باث لها شكاواه الاسيانه ، او قاص عليها حكاياته ، ومغامراته!! والطبيعة الجميلة الجبارة ، بين تقلبات الانسان اليف حميم ، او خصيم الىم ، تارة هي تفرح لفرحه ، او تحزن لحزنه، وتارة اخرى هي تنقلب عليه ، تعانده او تقهره !!

بهذه الاغراض الفنية ، الادبية اذن تنطق اعمال هؤلاء الفنانين ، والادباء المعروفين بانهم غنائيون ، او ابداعيون ، او لنقل ايضاً رمزيون ، في تعبيرهم عن موقفهم من ذواتهم ، ومن الحياة او من الطبيعة الجميلة الجبارة حولهم !! لولا ان الرمزيين يفترقون عن اقرانهم الغنائيين او الابداعيين، بالحدة التي لمشاعرهم والتركيز الذي لافكارهم، والايحاء الذي لموسيقى اسلوبهم (١) !!

والشعور بالطبيعة لدى الغنائيين، او الابداعيين شعور معقل متزن، هو موضوع وصفهم او تحليلهم او قصصهم !! ولكنه لدى الرمزيين تجربة اكثر تعقداً او لنقل اكثر دقة !! وذلك ، ان الحمى التي للتجربة الرمزية بكل من مشاعرها ، وافكارها واخيلتها الخاصة والمتميزة الحادة والمركزة تجعل هذا الشعور ، الشعور بالطبيعة ذوباناً وجدانياً كونياً ، لا هو موضوع وصف، ولا موضوع تحليل ، ولا موضوع قصص !! بل انك لتجد الرمزيين من الفنانين والادباء، بدل ان يسقطوا حالاتهم على الطبيعة حولهم، يصبغونها باصباغهم ، وهم متميزون عنها؛ اذا بهم يعيشون الطبيعة في انفسهم؛ او يعيشون تجاربهم نفسها في الطبيعة ذاتها بكل مناظرها ، وبنوع من الذوبان الوجداني ، مع ما فيها من اشكال او حدود او قيود !! فيصبحون شيئاً وجدانياً واحداً معها ، لا فرق بينهم كذوات شاعرة ، او بينها كذات مشعور بها، كما يقول الفنانون والادباء من الرمزيين !! نعم !! يذكروننا ايضاً بسقوط الفوارق ، المادية والمعنوية ايضاً ، بين الانسان كروح وبين الطبيعة كمادة ، كما يقول المثاليون من الفلاسفة والصوفية !!

ومن الطريف ، اللطيف حقاً ، من امر هذه التجربة التعاطفية المتميزة والخاصة ، انها كان لها مظاهر تاريخية حضارية ؛ عاشتها كثير من الفرق العابدة او المتأملة في مجالي الوجود ؛ وتطورت معها بين ديني او فلسفي ؛ او لنقل كانت اشبه ما تكون بسلوك تأملي ، تعبدي ، خدمت كلا من العلم والعبارة : منهجاً صوفياً تأملياً !!

وماذا نقول عن الملازمات الفكرية التي لهذه التجربة التعاطفية في شكلها الصوفي التأملي ؟! غير تذكرتنا بانها عندما كان لها ذلك الطابع الديني او الفلسفي ، قد كان اساس تجربتها موقف وجودي من العالم الخارجي المادي خاص ؛ على انه حيوان كبير يحس ويتألم ؛ وان السعادة والمعرفة هما ، في دخول الانسان هذا العالم الصغير ، في الم العالم الكبير هذا الذي هو يحويه !! اي بعبارة اخرى ، موقف وجودي ، تمثله للعالم الخارجي تمثل عضوي !!

الا ان هذا التمثل العضوي للعالم الخارجي المادي لم يدم ؛ بل زال وتبعه تمثل آلي في التفسير العلمي والفلسفي . وهو التمثل الحديث والوضعي في اساسه ، الذي يرى العالم الخارجي ، المادي حركة وامتداداً ؛ كما يذهب يفسر ظواهر العالم الخارجي المادي تفسيراً مادياً وضعياً ، وخاصة بمبادىء السببية المادية !! وذلك ان تمثل العالم الخارجي المادي تمثلا عضوياً نتيجة من نتائج التفسير الغائي ، الذي كان يسيطر على العقول في الاعصر القديمة ، من ايمانهم بسعي الانسان والعالم لغاية هي التطهير والرقي ؛ وخاصة بالنسبة للانسان الهروب من الالم بالاندماج في الالم الكبير : الم هذا الحيوان الجبار الذي هو الطبيعة كلها !!

وبهذا لم يبق للعلم ولا للفلسفة ، مع هذه النظرة الوضعية ، غير تفسير الظواهر الموضوعية بظواهر موضوعية اخرى ظاهرة كانت او مستورة ؛ الامر الذي امحى معه كل اثر لمعاناة دينية اخلاقية او صوفية تاملية التي للتجربة التعاطفية على العموم !! او بقي منها نشاطها الفني ، ولنقل الادبي المتميز والخاص !!

ومفتاح فهم هذا النشاط الفني والادبي والتعاطفي هو الانطوائية الحادة المركزة اي النظر الى العالم الداخلي الذي للفنان او الاديب الرمزي !! وذلك ان التجربة الرمزية تجربة شاقة موارة هاربة هي هالة من الضجيج والثورة والاضطهاد ؛ ترى الاديب او الفنان الرمزي فيها ملتفتاً الى معاناة احواله الداخلية اكثر من التفاته الى بسطها او تحليلها اي بعبارة اخرى الى تعقيلها !! حتى اذا ما اراد التعبير عن تجربته هذه التي هو يعانيها ؛ وقف في الدفقة الخالقة التي لآلام نظمه على كل من المشبه المعنوي الهارب الذي هو يعانيه والمشبه به المحسوس الجاثم امامه الذي هو مناظر

البقية في صفحة ٧

(١) - راجع ايضا نقد عدنان الذهبي لديوان : « لمن ؟ .. » للاستاذ البير أديب « مجلة الاديب - اغسطس ١٩٥٢ ص ٥٦ » ، ففيه تحليل ، لما فيه من اغراض فنية ، وأدبية ، ونقد لاساليبه ، وفنيته

عزلـة

✡

منسيّةٌ في الروض يا وردتي   وانت كل الروض في شرعتي
اسكرته بالنفح حتى غفا   ما اطوع السكران للغفوة
في ذمّة الطهر هوى مربعٍ   فارقتِـه طـاهرة الذمـة
ودّعتِ دنيـاة بـلا حسرة   وآبَ من ودّعتِ بالحسرة .
لا توصدي قلبك دون الندى   فالجرح قد يُغسل بالدمعة
وقد يهلّ الأُنس من عزلةٍ   كما يطل الفجر من دجنة .
أنفاسك الحرّى تجوب الضحى   كأنهـا مسكٌ على جمرة
او أنهـا روحـك محمولة   على جنـاح الريح للجنـة .
يـا نجمةً عـالقةً بالثرى   أفلتكِ الطينُ ولم تفلتي
لم تنفضي كفّيك من تربةٍ   ربّتك بين الشوك والخضرة
أسدى لها النبتُ الكريم الجنى   ما فاتها من كرَمِ المنبت
ماذا على الاطياب ان ضمخت   معاطس الديدان في الحمأة ؟
الشمس لا تهبط من أوجها   في نورها الضافي على الوهدة .

***

قد تحمل الوردةُ من شاعرٍ   رسالةَ الحيّ الى الميـّت ...

باريس   جورج صيدح

من « السبول والعنقاء »

الكتب وحفنتان من تراب

بقلم جبرا ابراهيم جبرا
استاذ في الآداب من جامعة كمبردج

فعلت الموسيقى* فعلها في نفسي . لقد اقلقتني ، واثارت خواطري ، والقت بذهني في خضم من أشتات الاحاسيس. وكانت شيلا في تلك اللحظة في قيلولة الظهر ، وقد استلقت على الفراش وهي في ثيابها، ولعل الموسيقى تسربت اليها من غرفة الجلوس التي كنا فيها ، وتغلغلت الى اغوار وعيها المعتمة ، ولعلها – حين توقف جون يتزز عن العزف ـ شعرت بامواج السكون تعود فتغمرها ، وذلك سكون أعمق من السبات نفسه . اما انا فقد اقلقتني الموسيقى ، وذلك قلق أرحب به : فقد شعرت بيدي تتحرق الى القلم ، ومهما كتبت حينئذ فاني كنت واثقاً انه سيكون في منتهى الروعة . لقد ادركت ان ذلك اللون من الاضطراب ليس الا نسمة الوحي الاولى ، وها قد مرت اشهر منذ ان نعمت بنشوتها ـ ومـا اشبهها بالحمى ! ذلك الشعور في الرأس ، في اليدين ، في الرئتين ؛ وتلك الازمنة في انسجة الجسم ، وذلك التركيز العصبي العجيب ، كنت اعرف معناهـا حق المعرفة . فقلت لنفسي : يجب ان تبقى شيلا نائمة ريثما اصب الافكار المتراكمة في ذهني . الافكار ؟ لا ، بل قل الاحاسيس. ايمكن للمرء ان يحول بريق الشمس الى فكر ؟ او جمال شيلا! واذ رأيتني احاول ان اضفي شكلا على ما يتردد في نفسي، قلت :

« ارجوك يا جون ان تعزف تلك السوناتة مرة اخرى ».

وبينما راح جون يعزف سوناتة بيتهوفن على البيـانو ثانية ، خيل الي ان رؤاي اخذت تتبلور . فقد ظهر لعيني مشهد للجمال الفطري جعلني اقول لنفسي: هذا هو شعر الحياة، وعلي ان انظم ابياته الان قبل ان تذبل فيه المعاني وتموت. ان الذكرى والحلم والشهوة لتلعب فيه ادوارها، كأن تلك البغي التي ندعوها الحياة، ما زالت تحتفظ بآثار من البراءة على جسم نظيف جميل يوحي بكل ذلك!

وعندها صحت قائلا : « جون سوف اكتب كتاباً عجيباً . وإني لاراه الان منتشراً امامي ، صفحة اثر صفحة مـن حكمة العقل وثورة الحس . فكأنه تجارب البشر في موجز لا يتعدى حفنة اليد ، عنف الشباب واستسلام النساء الحسان ... انظر يا جون. فكما تعالج انت مفاتيح البيانو باصابعك العارفة باسرارها، هكذا ساعالج انا مفاتيح الافكار والاحاسيس . وسابدأ الان ، حالا . فاذا افاقت شيلا اخبرها بالذي يشغلني . قل لها اني اكتب كتاباً لن يقضي عليه الزمان .. وإياك ان تضحك مني ـ الا اذا عجزت عن خلق هذه التحفة في بحر شهرين اثنين !» .

ولـكن جون لم يلتفت الي ، بـل استمر في عزفه . فقمت واتجهت نحو غرفة النوم حيث كانت شيلا ما تزال نائمة. ووقفت بالباب انظر اليها تتنفس بلطف ، فيعلو صدرها وينخفض كموجة صغيرة ، وقد انفرجت شفتاها قليلا كانها على وشك الابتسام ، وبدا وجهها أبيض صقيلا تشوبه حمرة باهتة . فتقدمت منها على رؤوس اصابعي وانحنيت فوقها وقبلت فمهـا برفق « ولعلهـا احست بالقبلة غير انها تظـاهرت بالنوم » وتراجعت كما دخلت وعدت الى مقعدي في غرفة الجلوس ، وجون ما زال يعزف ، نائياً بفكره عني .

* راجع «الأدب» لشهر يونيو ١٩٥٢ ، ومايو ١٩٥٠

تتمة المنشور في صفحة ٥

الطبيعة وجوانبها ؛ ولا فرق عنده بينهما !! فيرمز : مستعمـلا المحسوس بدل المعنوي في اسلوب كله المفاجآت والايحاآت ؛ ويأتينا بهذا الذي نسميه رمزية تعاطفية، هي في الحقيقة التجربة الرمزية الحقانية الاصيلة ! ثم اذا جئت تحلل تعبير هذه التجربة التعاطفية ، وجدت ان لها مرحلتين متميزتين، الا انهما مقترنتان بعضهما ببعض ، الاقتران العميق المتأصل في جذور التجربة الفنية الادبية التي للرمزية نفسها ؛ احداها : هو المرجل اللاشعوري الانطوائي ، ذو الصبغة الكونية الذي هو التعاطف الرمزي او الشعور بالرمز الوجداني الكوني نفسه ؛ وثانيتها: هو الاسلوب الاجتماعي التأليفي المعقل لهذا المرجل الصاخب ، وهو التعبير الرمزي الفني منه او الادبي !! الامر الذي نلمس فيه ما للفن ، وخاصة الادب من نشاط متميز وخاص يتجاذب فيه اللاشعور والشعور الفردية والجماعية ، عالم الروح وعالم المادة !! ثم هو يدور مداراً فنياً ادبياً ، التفلسف الذي لفنانيه وادبائه ليس بذي بال بقدر القيمة التي لمراحل تجربته او لنقل بالمعنى الصوفي، احواله الدقيقة والهاربة بقوميها الاساسيين ، النفسي منها او التعبيري !!

دمشق — عدنان الذهبي

غير انني لم استطع ان امس قلماً بيدي . فقد ازدحمت في نفسي الفكر والاخيلة والاحاسيس ، فلم أر الا خليطاً من الذكريات والاحلام والشهوات التي عجزت عن فرزها وحصرها فاستسلمت بها وللموسيقى معاً – ونسيت في الحال ما قلته لجون.

على انني لم استطع البقاء في كرسي طويلا ، واذا انا اقوم وانزل الدرج بسرعة الى الشارع وامشي في اتجاه النهر ، لاخفف من حدة ما يعتورني من « حمى الابداع » ... أنى لي ان اكتب شيئاً متصل الاجزاء ، كامل الجوانب ، وانا مصاب بهذا القلق في حبي لشيلا ، وبهذه النفس الموزعة وهذا الصدر الواجف ، فلا انا في انكلترا ولا انا في بلدي ، ولا انا افهم مشاكلهم حق الفهم ولا انا استطيع العودة الى مشاكلنا لما فيها من الذل وخيبة الجهد ؟

وما كادت عيناي تقعان على النهر ، وقد استكانت اوزة على صفحته ، حتى كان اول بيت من ابيات قصيدة جديدة قد اكتمل في ذهني . والشعر غير النثر ، لانه شخصي بحت، ولا يعنى الا بعاطفة انانية عابرة .

ولما عدت الى شيلا وجون ، وجدتها يهيئان اواني الشاي.

وقال جون : « انظري يا عزيزتي الى « نور آسيا » يعود فيشتت ظلمات حياتنا ... »

فقلت : « آسف يا جون . فقد عدت هذه المرة متخبطاً في الظلام مثلكم ، لا احمل الا بضعة ابيات من الشعر » .

فصاح : « اذن هاتها ! » فقلت :

« حفنتنا ثلج جناحاها ، وقد انطويا
على صمت ناصع حيث لا نوم ولا حلم .
وقد سال منها وعيها الى الماء
فتهامسا ، وانطوى جناحاها
على ثلج جاءنا صيفا مع الورود
ثم لفها الليل في ازاره وراح بها
الى حيث الارواح مع الافاعي تتلوى » .

ورأيت عيني شيلا تطفحان بالحزن ، لانها ادركت ما رميت اليه من معنى « مهما كان غامضاً » وقالت : « ليتك لم تذكر الافاعي يا جميل ، ليتك ابقيتنا مع ثلوج الصيف والورود » .

فقال جون : « ان امثال جميل لا يقنعون بالجمال الا اذا ثار فيهم الالم والشعور بالمأساة . ولعله اقرب الى حقيقة الحياة . هلا اعدت تلاوة القصيدة ؟ »

ولما اعدتها قالت شيلا : « كنت اود ان تجعلها هكذا :

ثم لفها الليل في إزاره وجاء بها
من حيث الارواح مع الافاعي تتلوى ،
واذا حفنتنا ثلج جناحاها وقد انطويا
على صمت ناصع حيث لا نوم ولا حلم ،
وقد سال منها وعيها الى الماء
فتهامسا ، وانطوى جناحاها
على ثلج جاءنا صيفا مع الورود ... »

فقلت : « شتان ما بين القصيدتين . ففي قصيدتي مغزى الالم والموت ، وفي قصيدتك مغزى النجاة والحياة » .

فقال جون : « اما انا فافضل قصيدة شيلا ، وان اكن اعلم حق العلم ان قصيدتك اقرب الى الروح الجرمانية المتشائمة . هاك قدحاً من الشاي ، ولنفتح الراديو . كفانا تشاؤماً ! »

وانطلقت من الراديو الحان الرقص الصخابة . ولما جعلنا نضحك نسيت الوحي والالم ، وقمنا انا وشيلا نرقص في الغرفة الضيقة الى ان تعثرنا بالكراسي ، وجون يقول ساخراً :

« ما احلى الشباب باحزانه ، وما اسعد المحبين بآلامهم ! »

واردفت شيلا : « يسكرون من الشاي ويعانقون إوز الجحيم! »

وقلت : « ويلفهم الليل في ازاره فيرون الورد نامياً فوق الثلوج ... »

فقال جون : « من رأيي ان تجعل قصيدتك هكذا :

حفنتنا تراب جناحاها وقد انطويا
على ضجيج قان حيث الرعب والشبق ،
وقد عاد اليها وعيها من الماء
فتآمرا ، وانطوى جناحاها
على تراب جاءنا كل يوم مع الشهوات .
ثم لفها الليل في ازاره وراح بها

او ليست هذه اقرب الى الحقيقة ؟ »

فصاحت شيلا : « انك ساخر مريع ! »

فقهقه جون قائلا : « من الواضح ان الاوزة في قصيدة جميل رمز من رموز الحب . وما هذه الرومانسيات المفعمة بالرموز الا تهرب من حقيقة التراب التي يخشاها اكثر الناس . غير ان هذه الحرب قد عادت بنا الى ما كنا نتهرب منه . والبارع من استطاع تصويرنا ونحن نتمرغ في التراب من جديد اننا على ابواب قرون مظلمة ، ولكن غير تلك التي عرفناها منذ الف سنة . ان القرون المظلمة الجديدة ستنيرها الكهرباء ، وتسليها السينما بقصص الاجرام، ولكنها لن تشعر بالخطيئة كما كانت تشعر القرون المظلمة السابقة ، ولذا ستكون حياتها أمراً يرثى له : اذ كيف يستطيع الانسان ان يتمتع اذا لم يستشعر الخطيئة ؟ اذا كانت كل امرأة تضاجع كل رجل تلقاه ، لانها لا ترى في ذلك

ما ينافي العرف الجديد ، أنى لانسان ان يجد لذة في الحب او آلامه ؟ أجل يا عزيزتي ، حفنتا تراب جناحاها ، ليس الا ! »

فقالت شيلا حانقة : « انك بسخريتك تحطم كل شيء مقدس. ولكنك في الواقع تخاف من الحياة وتطورها، ولذلك تعزو الى التطور كل ما هو شرير ، لكي تبرر خوفك » .

فاجاب : « انك مصيبة . لانني امشي وعيناي مفتوحتان ، ارقب كل ما هو حولي . وقد رأيت بذور الشر تنمو ، ورأيت البعض يكافح من اجل اقتلاعها . الا ان اكثرنا رأيتهم يقتلعون بذور الخير ويحتضنون الشر » .

ولم اعجب انا لآراء جون ، لانه ليس في الوجود ما يسره اكثر من إلقاء القاذورات ، ذهنياً، على معتقدات الناس واساليبهم ثم ان « جين » تلك الحسناء الفارعة القد الخضراء العينين ،التي كان مشغوفاً بها ، هجرته وعادت اليه عدة مرات . وقد رآها مرة بعينيه تقبل رجلا في احدى الزوايا ، فادرك انها لن تخلص له مهما ادعت هواه . غير انه لم يعد يهتم بمثل هذه الامور ، بل جعل منها امثلة توضح نظرياته في الحياة .

قلت : « اغلب الظن انك ستشعر باشد الخيبة لو نظرت حولك فلم تر الا بذور الخير . تصور حياتنا لو كانت كلها نهاراً متواصلا . فالخير والشر يقابلهما النور والظلام، الجمال والقبح ، الطهر والخطيئة ، السماء والجحيم ... والازواج المتضادة كثيرة، ومعانيها كلها متقاربة . وهي رموز لتجارب الانسان باجمعها . ومن الواضح انه ليس لرمز من هذه الاضداد معنى اذا لم يكن له ما هو نقيضه . وما الذي تبغيه من المرأة ان تكون ؟ عفافاً لا ينتهي ونوراً لا يخبو وجمالا لا يذبل ؟ »

فهتف مقاطعاً : « معاذ الله! ولكن ما اخشاه هو ان تصبح المرأة خطيئة لا تنتهي وظلاماً لا يستنير وقبحاً لا يتراجع ! »

فقلت: « اذن ما رأيك في تلك الرقعة الواقعة بين النور والظلام : فترة الغسق ، او تلك الرقعة القصيرة من ساعات ضوء القمر ، عندما يكون القمر في منتصفه ويكاد يغيب ليسدل على الدنيا ستار الظلام الحالك ؟ تلك هي فترة عدم اليقين ، فترة الدهشة والعجب . انها الفترة التي تبدأ فيها هواتف الشر تخالجنا من بعيد : فشمس الحق ليست هناك ، ولا ظلمة الجهل او حلكة اليأس . اننا لنتأرجح فيها بين الاضداد، فنلمح الفراديس لحظة وهاويات الجحيم لحظة اخرى ، ونكاد نامس العفاف بيد والدنس باليد الاخرى ... ان المحظوظين القلائل منا يعيشون في فترات من الغسق متوالية . اما الاكثرية» .

– وماذا يهمنا أين تعيش الاكثرية ؟ انها تتخبط في كهوف الليل الدامس ، ولعلها تنتظر ان يجيء اليها من حيث لا تدري رجل يشعل عود كبريت، فتمتع نفسها برؤية النور دقيقة واحدة ثم تعود الى ظلامها ! وعلى كل ، فليس لهذه « الاكثرية » ان تعرف الحب ، حتى ولو كحفنتين من تراب .

فقالت شيلا : « وما الذي يهم الاكثرية من نظريات الحب ، وقد بسطها لهم نبيهم الجديد فرويد ، فاصبحت المسألة مسألة « كبت » او « اطلاق ما هو مكبوت » ؟ ان ملايين الناس يغنون كل يوم اغاني الغرام التي يفرضها عليهم الراديو ومثلو السينما ، وبقدر ما يلوكون هذه الفكرة يجهلون حقيقتها » .

فقلت : « اخشى يا عزيزتي انك عدت الى نظرية جون من حيث لا تدرين ! »

وضحك جون ضحكته الخبيثة . غير ان شيلا ابتسمت اذ اعادت خصلة من شعرها بيدها الى الوراء، وقالت :

«ولعل جون لم يدرك ان الحب كان منذ القدم ولا يزال للاقلاء فقط . انا لا افكر ان اكثر الناس يغلفون عواطفهم الرخيصة في غلافات زاهية الالوان ، فيوهمون انفسهم انهم مشوا ولو مرة في حياتهم برفقة كازانوفا ، او بايرون، او المركيز دي ساد . ولكن الواقع ان الحب نظام سري من انظمته المتصوفة ، يجب ان ترافقه الالم وتعتوره المصاعب ويلهبه الخيال الخلاق . ومثل هذا الحب للفئة الخاصة دون العامة ، واذا لم تعرفه يا جون ، فقد غابت عنك نصف الحقيقة ! »

فقال جون : « اتمنى لو كنت اعرف مثل هذا الحب،ولكن من اين لي ذلك ، وكلما تعرفت بامرأة جديدة تحرك عواطفي ، رأيتها في الحال تنظم لي مصيري وترتب لي مستقبلي في كنفها ؟ فليست المسألة « اطلاق المكبت » فحسب، بل هي ارتباط لمدى الحياة، ينفي المصاعب الملهمة ويقتل الالم المبدع . اريد من الحب ان يكون بركاناً يتفجر ، وتريد النساء منه راحة واطمأنينة وما اقرب الطمأنينة من الموت ! »

***

أولا

كنا بعيدين جداً عن الموت ، لاننا لم نعرف الطمأنينة ولو من بعيد . كنا نعيش ليومنا، فنعيش بعنف وشدة وقلما شابه اليوم اليوم السابق . ورغم الهدوء الذي يبدو مرفرفاً فوق طرقات كمبرج القديمة ونهرها الاخضر ، فقد كنا نشعر ان حوادث العالم ، قديمها ومعاصرها ، تلتقي خطوطها في غرفة كغرفة جلوسي ، فما يستطيع احد ان يتجاهل ما في التاريخ من

حماقة وبؤس وجرائم تتكرر كل يوم في شكل جديد لئلا ينجو من فعلها احد. ولكننا كنا هناك بين يدي كل ما هو جميل ورائع ايضاً، ولن يعمى أحد منا عما يقدمه المبدعون كل يوم للحياة.

ولعلنا كنا بعيدين عن الطمأنينة لان حياة الطلبة مصطنعة، وعواطفهم مستقاة من ملايين الكتب هذه التي تجعل من انفسنا ساحة استعراض لاسفاف الانسان وعظمته معاً. ولذلك كنا نرى حتى في حبنا حقارة الانسانية وسموها، رقصها المأخوذ عن قصور القرن الثامن عشر، وجرائمها الشهوانية المأخوذة عن مدن النهضة الايطالية. والى ذلك كله علينا ان نضيف مظاهر الدماثة الانكليزية التي بدونها لا يعد المتعلم مثقفاً. ولما كان تفكيرنا يرتبط بمآسي الاغريق ومآسي شكسبير بقدر ما يرتبط بظلمات دستويفسكي واحزان الشعراء المعاصرين الذين نظموا شعرهم في خنادق الحرب بين الاشلاء ـ فقد كنا نتغزل بالالم ونخجل من كل ما هو براق لما نجد فيه من سخافة. ولكننا، نتيجة لذلك ايضاً، كنا نجد في الضحك لذة اخرى، ولكنه ضحك صادر عن الاحشاء المتوجعة. وفي الملاقات الغرامية كنا نرى كل مصائب الدنيا تتخاذل حولنا، اذ تلمس الايدي فورة الحياة، وتنطق الشفاه بشعر يلهمه الجسد النابض، حتى اذا ما تراجعت موجة الشهوة، انتصبت الدنيا بمآسيها من جديد فوقنا، ودفعتنا من جديد الى النهر او الحقول او المقاهي او المكاتب الرازحة تحت وقر العلم.

اما الطمأنينة فلم تعرفها قط.

ولذلك قلت لشيلا ذلك المساء:

« اتعرفين كيف كنت اعيش في البيت قبل مجيئي هنا ؟ »

ـ لقد حدثتني عن الفقر الذي عانيته في السابق.

ـ ولكنني جبنت عن اطلاعك على كل الحقيقة. فالفقر درجات، ولم اخبرك انني عرفت من درجات الفقر ادناها.

ـ ذلك غير مهم الان. المهم هو حاضرنا هذا، والمستقبل.

ـ صحيح، ولكن الماضي كثيراً ما يلاحقنا، كما يلاحق الامم بالضبط. لقد كنا عائلة من سبع انفس، نسكن غرفة واحدة. وكنا ننام جميعاً على الارض. ولم تكن في غرفتنا كهرباء، بل قنديل نفط لعين الرائحة. ولم تكن لنا نوافذ تطل على اشجار وزهور، بل فتحات في الجدران تكاد تكون على مستوى ارض الزقاق، فلا نرى الا سيقان المارة، فنعرفهم من سيقانهم.

ـ وكيف استطعت ان تدرس في مثل ذلك الجو ؟

ـ لم اجد صعوبة في الدرس لان كل كتاب قرأته كان بعيداً عن الحياة التي احياها. فامتلأ رأسي احلاماً جميلة، حتى جعلت لا افرق بين الكتب والحياة. فكانت الكتب تغذي خيالي فاستمد من مظاهر الفقر التي حولي شيئاً من الجمال يصد عيني عن القبح المنتشر في كل مكان، ويمنعني عن التمرمر واليأس. اليأس؟ ان الفقراء لا يعرفون اليأس مطلقاً! اليأس من كماليات ذوي المال والمساكن الضخمة والحياة المعقدة. اما الفقراء فلا يتطلعون كثيراً الى الاعلى، وكل تحسن يطرأ على حياتهم، مهما كان طفيفاً، يجيئهم كنعمة من الله. ولما لم اعرف اليأس، كانت المطالعة مصدر قوة لي وفرح لا ينتهي. وكثيراً ما كنا نخرج، انا وبعض اصدقائي الذين في مثل حالي، فنذرع الطرقات رائحين غادين نتحدث عن الثورات الفكرية والادبية التي سنقوم فيها في المستقبل. ثم نعود الى بيوتنا وناكل ما لا يحسد احد عليه، وننام على الارض والكتب ما زالت بين ايدينا، وعيوننا مترعة بالرؤى الهنية.

ـ الم تكن تلك خير تربية لك؟ فقد نبتت شخصيتك من تراب الارض نفسها، ولم تعرف الحياة الهينة التي لعلها كانت ستضعفك وتمنعك من استغلال قواك باجمعها. او لا تنام في هذا الجو الرقيق البعيد عن مشاكل الحياة، وعيناك مترعتان بالرؤى أيضاً؟

ـ بلى، ولكن اية رؤى؟ اذا لم تكن رؤى الحب، فهي رؤى الخوف والقلق. لقد تعلمت هنا كيف يكون الخوف على الحياة، وكيف يكون القلق على الانسانية. فقد غيرت الكتب دورها في حياتي، فعلمتني من ناحية ان اخشى على الانسانية، وعلمتني من ناحية اخرى ان الانسانية لا تسوى قشة واحدة اذا لم ينتصر الفرد لرأيه ولم يتح له التمتع بما اوجده المبدعون من قبله. لقد تعلمت الكآبة بقدرما تعلمت النشوة. وفوق هذا وذاك، فان دراستي هنا قسمتني على نفسي، فاصبت بعدوى المرض الاوروبي، مرض فاوست.

ـ نصف يتشبث بمسائل الروح العلوية، ونصف يتمرغ في اوحال المادة...

ـ وهذا هو العذاب الجديد.

فقالت: « الان فهمت ما رميت اليه اذ قلت:

ولفها الليل بازاره وراح بها
الى حيث الارواح مع الافاعي تتلوى.

انك لا ترمز الى الحب بقدر ما ترمز الى النفس. لقد فقدت النفس سذاجتها، فغزتها ظلمة من الالم، وطوحت بها بين الافاعي ».

لم استطع النوم تلك الليلة ، فقد عاودتني ذكرى صباي بين قومي في الوديان والتلال والمدينة القديمة، واستسلمت لصور الازقة التي كنت ربيت على حبها ، ووجوه عشرات الرجال والنساء الذين كانوا يملأون الغرف الصاعدة النازلة حول مسكننا. وخيل الي اني عدت ثانية الى ذلك المسكن العتيق المنخفض السقف ، فاراني أتحدث ، واذا الجيران يضحكون من سخافتي وراء ظهري ويقولون: اهذا هو المعلم ؟ لماذا لا يشتري له سريراً ينام عليه ، ويشرب شيئاً من العرق كل مساء ، ويفتح الراديو ليسمعنا آخر اغاني الافلام ؟ انهم يذهبون الى اوروبا، فيعودون لا نحن نفهمهم ولا هم يفهموننا . اهذا هو العلم ؟ ما الذي يهمنا اذا كان الحب حفنتين من ثلج او من تراب ، وهذه الثرثرة عن المسائل الفكرية التي لا تطعم احداً خبزاً ؟ لماذا لا يتزوج وينجب الاولاد ، ويقتني شيئاً من مظاهر الجاه التي تليق بالمتعلمين ؟ وتجتمع نسوة الحي بامي على مقربة مني ويجتذبنني الى حلقتهن وهن يشربن القهوة ، وتتبرع واحدة منهن بقراءة فنجاني . ولها وجه عتيق البشرة ، وعلى شفتها السفلى المشققة قشور بيضاء ، وشعرها كجزة صوف لم يغسل منذ زمان ، وتقول لي وهي تدير الفنجان بين اصابعها ، ان هناك شقراء تحبني وسمراء تغار علي ، ورجلا قصيراً يكرهني ، وستأتيني مكاتيب فيها اخبار سارة ، وسيكون في احدها مبلغ كبير من المال ، وان هناك طريقين مفتوحتين امامي وثالثة مسدودة. وتصيح احداهن: أين خطيبتك الانكليزية ؟ وتضحك الاخريات ، وتقول واحدة ان بطنها يوجعها منذ ثلاثة ايام . واهرب من بينهن الى الزقاق المليء بالاطفال ، واذا زوايا مملوءة بمخلفات بطونهم ، وعزيز الاعمى جالس على عتبة احد الابواب يدق على العود ، ويرفع عقيدته مغنياً : يا ليلي يا ليلي يا ليل ...

***

وفي صباح اليوم التالي التقيت باصدقائي في مقهى «دوروتي» وقد لبست شيلا قميصاً اصفر مفتوح العنق حتى اعلى نهديها ، وجون يبترز في سترته الصوفية العتيقة بكوعيها المرقعتين بالجلد ، ومعه صديقته جين ذات العينين الخضراوين الواسعتين والشفتين المضمختين بالاحمر الفاقع ، والكومار كمل داس مع مورين ، وكلاهما يتألق سعادة لانهما سيتزوجان عن قريب، وقد بادرني جون بالسؤال لكي يسمعه الجميع :

« هل شرعت في كتابك الخالد ؟ »

فقلت متجاهلا : « اي كتاب ؟ »

ـ ذلك الذي سيحوي تجارب البشر في موجز لا يتعدى حفنة اليد . ـ اجل اجل ... لقد بدات به الليلة الماضية.

فقالت جين : « ابدأت بتأليف كتاب ؟ عظيم ! »

فاجبت : « نعم . لقد قضيت طيلة الليلة الماضية في الكتابة ، فانجزت عشرين صفحة . ولكنني عندما راجعتها ، والشمس تطلع مزقتها جميعاً . فقد ادركت ان المرء اذا اراد ان يكتب ، يجب ان يكون دافعه الاول الاعجاب بشيء ما، او على الاقل الايمان بشيء ما . ولكنني وجدت انني لست معجباً إلا بكل ما هو بعيد عني . انني معجب بالاشياء التي لا اعرفها ولا تمت الي بصلة ، فكيف اكتب عنها ؟ اما الاشياء التي اعرفها ، واختبرتها بحسي ، بيدي وعيني وعضلاتي ، فلا أجد فيها إلا الخيبة والمهانة ... »

فتضاحك كل ، وهو يلقي نظرة جانبية الى شيلا ، وقال : « وهل ينطبق ما قلت على الحب ؟ »

فقلت : « لسوء الحظ لم يبق لي إلا الحب موضوعاً للكتابة . ولكن من لم يسأم هذا الموضوع ؟ »

فقال جون : « لم يسأمه احد بعد ، ولكن عليك ان تجعل منه شيئاً ترابياً ، شيئاً تمسه باصبعك فيتفتت . ذلك هو الموضوع الحقيقي . وكل ما عدا ذلك خرافة يعرفها الجميع . »

ـ وسآخذ بنصيحتك يا عزيزي جون ، لاننا في عصر مصاب بالسكيزوفرينيا لقد انقسمت شخصيتنا الى شطرين متناقضين، فنحن اذ نتمتع بفعل شيء ما ، يعجبنا عند الكلام عنه ان نهاجمه . اننا نقول عكس ما نفعل ، ونرتأي عكس ما نشتهي . اننا نكره ما نعشق ، ويلذ لنا لذلك ان نحطم ما نحب ، حتى صار يلذ لنا في النهاية ان نحطم انفسنا . وهذا موضوعي الجديد .

وتذكرت في الحال ازقتنا القديمة ، والنساء المهلهلات الثياب والصبية يتعاركون تحت الاشجار الغبراء ، واذا شيلا تمشي وسط ذلك كله حافية القدمين ، وقميصها الاصفر ممزق عن نهديها ، وليس هناك لا خيل ولا خيالة ، لا غابة ولا عشاق قرب الجداول . لم أر إلا بيوتاً صاعدة نازلة ، وفتاة جميلة . هائمة بينها ، وجارنا عزيز الاعمى يدق على العود ، وانا متكيء على الجدار المهدم قرب النافذة ، وفي يدي الكتاب الذي كتبته ـ فاقلب الصفحات ، واذا هي بيضاء خالية ، لان كل سطر فيها قد امحى .

وعند ذلك عزفت موسيقى المقهى ، وجعل البعض يرقصون فقمنا وحذونا حذوهم .

بغداد جبرا ابراهيم جبرا

من ديوان القروى

☆

من ديوان «الشاعر القروي» الذي نزف الى القراء بشرى صدوره قريبا في البرازيل

باب الموجات القصيرة

قلت يوماً لزهرةٍ تفضح الوردَ ... قواماً ومبسماً ومحيّا
ما لكلّ الازهار دونكِ يملأنَ الربى والوهادَ عُرفاً ذكيا
فاجابت فقدتُ عطري لاني ... كنت في سالفِ الحياةِ بغيا

نطلبُ امراً يزيدنا تعباً ... لم نكُ لولا الطموح نطلبه
ليس لانّ الطموح يُسعدنا ... لكن لانّ الحياة توجبه

هبّت الريح فلاّح شكا ... عند مسراها وملاّح شكرْ
ليس في الريح ولا في البحر بل ... في هوى الانفس ما ساء وسرّ
سفن الاعمار اذ تجري بنا ... ليس في قاموسها خيرٌ وشرّ
تلفظ الحكمَ أنانيتنا ... ثم تعزوه الى حكم القدرْ

يا حاسبَ الاعمار لا تعجب اذا ... هذا قضى شيخاً وذاك غلاما
فكما تبدّل غادةٌ اثوابها ... بعض النفوس يبدّل الاجساما

واهاً على عهدكِ يا قريتي ... ايامَ إلا فيكِ لم أعرفِ
في ضعةِ المرء وقاءٌ من الهمّ ومن يستعلِ يستهدف

ولو سالت جبال الارض تبراً ... على كفي فقير الشاعريه
وراح المدّعي المغرور يشري ... ضمائرَ كلّ كتّاب البريه
لشالت كفة الدعوى ومالت ... رفيقتها بدرهمِ عبقريه

سان باولو ـ البرازيل ... الشاعر القروي

ناهد ونبيل

صورة تحليلية

بقلم يوسف الشاروني

ناهد فتاة في الرابعة والعشرين، تخرجت من أحد المعاهد العالية، وعملت مدرسة من بين آلاف المدرسات بمصر. أول ما تراها تأخذك اناقتها ورشاقتها ولباقتها، فهي انيقة في غير اسراف، تتقن اختيار ما يناسبها من الثياب لوناً وتفصيلا، تذكر لمعارفها انها تضع خطة التفصيل وان كانت لا تنفذه بنفسها، وهي رشيقة القوام، رشيقة الحديث، والرشاقة اتساق الحركة في الجمال.

وصديقي نبيل، شاب خبير بشئون النساء، يتخيرهن اولا، فاذا استقر اختياره على واحدة منهن لا يتخلى عنها الا بعد ان يحصل عليها. يعامل كل امرأة معاملة خاصة، وسرعان ما تنجذب اليه، وسرعان ما يبتعد هو عنها. وكانت له في ذلك فلسفته الخاصة، فهو يقول ان كل امرأة يقترب منها تتكشف له في النهاية عن فراغ وخواء، وهو يقبل دائماً متحمساً، تبدو عليه في كل مرة علامات الاخلاص حتى يغوي الفتاة ثم يتخلى عنها ليتحمس لاخرى، غير ملول ولا متوان ويبدو للفتاة أنه قد غدر بها، وانها كانت ضحية عبث سخيف غليظ، ولكنك اذا جلست معه احسست انه هو الذي رُدَّ خائباً لانه لم يجد ما كان ينشده. لهذا كان يقول دائماً: ليست المشكلة ان تحبني امرأة بل ان احب انا واحدة منهن. فقد كانت له هو ايضاً في الحديث لباقة، وفي الملبس اناقة، وفي الحركة رشاقة، وكان يمتاز بعينين خضراوين عميقتين سحريتين حتى ان جدة في الستين لكمته مرة وهي تصيح فيه ما بين جد وهزل: اخفض بصرك يا ابن الـ ...

عن طريقه عرفت ناهداً، وكان متحمساً لها حتى لينوي الزواج بها، لكنها كانت مخطوبة لسواه، وهو يدرك ذلك، ولكنه ما كان ليمنعه عن التحدث اليها في شأن رغبته. وكان في الموقف شيء - ان لم يكن كثير - من الحرج. ولكنها استطاعت ان تخرج من الحرج بلباقة رائعة. وان غيرها ليرتبكن في مثل هذه المواقف ويسئن التصرف اساءة بالغة حتى لكأنما اهانهن الرجل الذي تقدم اليهن، او حتى ليخفين من الامور ما يعقدها فيما بعد. اما هي فقد حدثته عن تقديرها لشخصه، وصارحته - وعيناه مثبتتان في عينيها - انها لو لم تكن مرتبطة بآخر لفكرت ان تقيم معه علاقة قد تؤدي الى ارتباط بينها، واخبرته انها اتت الى ذلك المكان في رحلة قصيرة تعود بعدها الى خطيبها ليتم زواجها. ولم يفكر نبيل لحظة ان يتراجع، بل مضى يزيد الموقف حرجاً، فصارحها بان حديثه عن شخصيته ليس الا لوناً من ألوان الغبار الذي تثيره كل امرأة تريد ان تنسحب من موقف يهدد بكارتها، تحاول بذلك ان تتفادى رؤيتها، فهو الطراء دبلوماسي لتخفيف وقع الامور. فاجابته بلباقة، وهل تظن ان الفتاة لا تقدر الرجل الا اذا كانت تتخذه زوجاً لها؟ ولكن صديقي ملحاح لا يريد ان يوفر على نفسه مشقة التحرك في أرض لا يثق كثيراً انها له، وهو يعرّض نفسه بذلك إما لرد مهين واما لظفر مبين على حسب قوله، إذ يرى ان الحياة كورقة النصيب كلما دفعت اكثر فاما كانت خسارتك اكبر واما كان ربحك اكبر وكلما لم تدفع شيئاً لم تخسر شيئاً ولم تكسب كذلك شيئاً. ويقول ان جبن الآخرين يجعل الربح شبه مضمون لدى المغامرين بالحياة.

ولكن الحاحه لم يضايقها ولا هو ايضاً غرها في اول الامر، بل حاولت بلباقتها ان تجعله على مسافة ثابتة منها، لا يبعد عنها ولا يقترب منها، وهو في اثناء ذلك كله يحاول ان يستكشف وسائل العبور الى قلبها. حدثها عن جسدها الجميل وعن شعرها وعينيها وشفتيها، وضحكت وتخضب وجهها واصبحت اكثر الفة به. ثم حدثها عن اناقة ثيابها ولباقة حديثها، فضحكت مرة اخرى وتخضب وجهها وازدادت الفة به، ثم حدثها عن مشاكلها، ثم... ثم وجد الطريق بعد ذلك مغلقة امامه في الوقت الذي كانت هي قد بدأت تجده مفتوحاً اليه. عبثاً حاول ان يجد لها هواية في الحياة حتى يشاركها فيها، لانه يرى ان هذه المشاركة هي جسر العبور الحقيقي بين قلبيهما. وحاول ان يخلق فيها هواية ولكنه وجدها من هذه الناحية مكتفية متحصنة داخل ذاتها، كل ما تطمع فيه ان تكون اماً وربة بيت ولا شيء آخر الى جانب ذلك. اعطاها كتاباً ذات يوم، وراعى ان تكون قصة شيقة سمعت عنها، فردته



اليه بعد بضعة ايام تعتذر عن قراءته لكثرة صفحاته، ولما حاول ان يعرف رياضتها المحببة ادرك من خلال حديثها انها « تعرف ركوب الدراجات». وعبثاً حاول ان يجد لها هواية حتى كجمع الطوابع. كانت على استعداد لان تبادله نكتة بنكتة، واطراء باطراء وسخرية بسخرية، وينتهي الامر. لقد فكر ذات لحظة ـ واثناء تحمسه لها ـ ان يظل جسدها لغيره ، ولتكن روحها له ، لتكن ملهمته في حياته ، وملاكه الحارس ، ولكنه وجد ان روحها لاهية عنه ، وهي تقبله في حياتها لانه يجيد التعبير عن انوثتها ، ولكنها لا تفكر لحظة ان تكون طريقاً الى وجوده هو، فادركت كيف تتكون اسباب الانفصال ايضاً هذه المرة .

وهكذا اصبحت ناهد في رايه اطاراً رائعاً لكنه ملئ بالفراغ وشد ما يتعذب حين يكون امام فاتنة فارغة ، فالفتنة تجذب حسه والفراغ يقصي روحه، ويخلق له ذلك موقفاً فظيع القلق، فيحس اللذة سطحية لا تتغلغل الى اعماق كيانه ولا تنتشر السعادة ابداً في دمائه ، حتى ليدرك في بعض اللحظات انه يعدو وراء سراب ، وراء شيء لا وجود له ، ولكنه لا يستطيع ان يحول عنه عينيه، فيعود حزيناً يتمنى لو ظل بعيداً لم يقترب ، فانه لم يصطدم في النهاية الا باللحم . وهكذا كان يقول شاكياً : انني لا استطيع ان أعبر اليها الا عن طريق جسدها ، لا فرق في ذلك بينها و بين الفتاة التي لم تنل اي قسط من التعليم ، فلا يستطيع الانسان ان يكلم فيها الانسان ، بل هي دائماً انثى تريد ان يعاملها دائماً رجل. إذا حدثتها عن جمال جسدها او اناقة ثوبها احمر وجهها و غمرته موجة من السرور اللذيذ ، فاذا ارتفعت قليلا في حديثي دافعت عن نفسها بما ترسله من نكات مليحة فردتني الى انوثتها بالرغم مني وصرفتني عما انا مقبل عليه من تطوير في الحديث. حدثتها ذات مرة عن اخت لها قائلا انه يود ان يعاونها لكي تتثقف تثقيفاً جامعياً ، فاجابته ساخرة « اذن أنت تريد ان تتعبها» قالتها كفكاهة تشبع الضحك في المعجبين بها ، ولكن نبيلا رأى وراء ذلك القول عقيدة كامنة في نفسها، ذلك ان المؤهل الرئيسي لدى الفتاة هو جسدها والفكاهة ميزة في الانسان ، وذلك الذي يأخذ كل الامور جاداً تصعب رفقته ، والشعب المصري ، نساؤه ورجاله ، قد أشتهر بحضور البديهة والنكتة الحاضرة قاوم بها بؤسه خلال آلاف السنين . لكن إذا حمل كل حديث محمل الهزل فان الامر يوشك ان يصبح انحلالا . لهذا ما لبث ان اتضح لنبيل ان ناهداً ليست سوى امرأة من خزف . وكنت اقول له : انك لا تجد الانسانة المتفقة معك في مجتمعنا حيث للنساء توجيه منفصل عن توجيه الرجال ، لكنك قد تستطيع لطول الممارسة ان تخفف من مشقة هذا الخلاف . فكان يجيبني بان ناهداً ليست لديها فكرة عن معنى المشاركة الروحية ، وان كانت على استعداد لان تحب وان تحب ، والحب لديها ـ رغم ما هي عليه من ثقافة ظاهرية ـ ما يزال في المستوى الحسي البيولوجي او المستوى الاجتماعي المظهري . فما كنت لاجيبه الا بقول اندريه جيد : ان حب الرجل للمرأة الذكية انما هو لون من الحب الجنسي بين الرجل والرجل. ثم اعقب ذلك قائلا : يبدو يا صديقي انك جمعت بين دون جوان وهاملت في نفس واحدة .


الاستاذ يوسف الشاروني

والواقع ان صديقي نبيلا ـ لانه يجمع بين هاتين الطبيعتين ـ كان عاجزاً عجزاً حقيقياً عن ان يغير تغييراً جوهرياً من قيم اي فتاة يلتقي بها رغم انتصاره الظاهري ، ورغم تملكه عليها تملكاً قد يصل الى جسدها ، ورغم اصراره الدائم على ان يعثر على شيء آخر وراء الجسد . والواقع من ناحية اخرى ان ناهداً لم تدرك كثيراً المعنى من اصرار صديقي على هذه الجوانب التي يبحث عبثاً عن وجودها فيها ، وانني يلمح من حين لآخر على ضرورتها . كانت واثقة من نفسها ومن انوثتها ، وكانت تراه لا يتوانى عن الاعجاب والتمتع ، ولهذا فهي لا تدري حتى اليوم لماذا ابتعد عنها فجأة . لكنه قد ابتعد في الوقت المناسب قبل ان تكون هناك نتائج تنسحب على علاقتها الاجتماعية الرسمية الاخرى وهكذا حين جمعت ناهد حقائبها لتعود، كانت تعود كذلك من رحلة عاطفية قصيرة لا يدري عنها زوجها المقبل شيئاً، فهو زوج قنوع طيب لا يطلب منها الا الجسد الجميل والبيت الجميل، وهذا هو كل ما لديها لتهبه. وهكذا افترقا وكل منها منهزم ، هي منهزمة امامه وهو منهزم أمام نفسه. ولربما بدا نبيل شخصاً غادراً خائناً اما ناهد، ولكن كان شخصاً جريحاً ـ كشأنه كل مرة ـ أمام نفسه

القاهرة — يوسف الشاروني

نظرية توينبي في نشأة الحضارات

بقلم ابراهيم شكر الله



ان البيئة وحدها لا تبتدع الحضارات . فثمة شعوب اجتمع لبيئاتها تجانس كامل في المميزات، ولكن استجاباتها اختلفت . فتفتح وادي النيل عن حضارة تلقائية باسقة وعجز وادي الاردن ووادي السند ووادي الريوجراندي والكولورادو ـ وهي التي تشبه وادي النيل في جميع ميزاته ـ عن اخراج ما انبثق عنه من حضارة .

والاستناد الى النظرية العنصرية ، من ان جنساً واحداً هو الذي طاف الارض، فاقام حضاراتها المؤزرة جميعاً ثم استقر به المطاف في غربي اوربا حيث حقق اكبر انتصاراته ـ وهي النظرية المعروفة باسم « الوحش الاشقر » ـ هوس عنصري ، وهذيان تشققت عنه نفوس جدبة اسكرتها القوميات الجامحة والرغبة المريضة في السيطرة والنصر .

فهذا «الوحش الاشقر» هذا النوردي الاسطوري لم يساهم الا في اربع حضارات او خمس على الاكثر هي : الهندية والهيلينية والغربية والروسية الارثوذكسية ، وربما الحيثية . بينما ساهم العنصر الالبي في سبع حضارات على وجه التحقيق . وفي تسع على وجه الترجيح هي : السومرية والحيثية والهيلينية والغربية وكلا من الروسية والمسيحية الشرقية والايرانية على وجه التحقيق والمصرية والمنوانية ترجيحاً .

وساهم عنصر البحر المتوسط في عشر حضارات هي : المصرية والسعودية والمنوانية والسومرية والهيلينية والغربية والارثوذكسية المسيحية والايرانية والعربية والبابلية . وساهمت العناصر الصفراء والحمراء وغيرها في حضارات رائعة امتدت في ربوع الشرق الاقصى وفي الاميريكيتين وفي غيرها .

فالحضارة العالمية اذن ، ليست وقفاً على جنس دون آخر . بل هي بناء وضعت لبناته المتفرقات شعوب الارض جميعاً واجناسها العديدة ، ولا توجد خرافة اشد نزقاً ولا اهون شأناً امام النقد والنظرة الثاقبة من خرافة العنصر المتفوق .

فاذا لم يكن الحافز الايجابي لقيام الحضارات التكوين البيولوجي وحده ، او البيئة الجغرافية وحدها، فهو لا شك تفاعل على نحو ما بينهما . وفي الفاظ اخرى يمكن القول ان العامل الايجابي الذي نبحث عنه ليس شيئاً مفرداً قائماً بذاته بل هو علاقة من نوع ما . ولنا الخيار في ان تتمثل هذه العلاقة في صورة تصادم بين شخصيتين فوق مرتبة البشر ، او تفاعل بين قوتين ماديتين .

فاذا اسلمنا اذهاننا لحظة للتمثل الاول فلعله ان يشرق علينا بانبثاقة وجدانية للحقيقة .

فالوجدان البشري منذ اول اشراقاته وهو يسعى للافصاح من حقيقة الوجود افصاحاً رمزياً مصبوباً في قوالب ادبية وفنية . ونحن نجد مثل هذا الدأب للتعبير عن المعركة الكونية في كثير من المسرحيات والقصص الكبرى التي جعلت موضوعها الصراع بين شخصيتين فوق مرتبة البشر ، صراع بين يهوه والحية ، كما في قصة سقوط الانسان في «سفر التكوين» او صراع ثاني بينهما

كما في قصة الخلاص المسطورة في «العهد الجديد» او التقاء بين الله والشيطان كما في «سفر ايوب» او بينه تعالى وبين مفستوفيليس كما في مسرحية «فاوست الجوته»، او صراع بين الآلهة والابالسة كما في الاسطورة الاسكندناوية «فولوسبا» او صراع بين ارطاميس وافروديت في مسرحية «هيبوليتس» ليريبديس، او كما في عديد غيرها.

كما يظهر هذا الصراع الكوني في زماننا – مستخفياً – في آخر ما وصل اليه الفلك في اصل حركة الكواكب.

فيقول السير جيمس جينز في كتابه «الكون المستغلق الاسرار»:

«نؤمن انه منذ بضعة الاف الملايين من السنين اقترب نجم – كان يتخبط في غياهب الفضاء – اقتراباً وثيقاً من الشمس. وكما ترفع الشمس والقمر المد في الارض، فان هذا النجم رفع امداداً في سطح الشمس. ولكنها كانت تختلف اختلافاً بيناً عن هذه الامداد الضئيلة التي ترفعها مساحة القمر الصغيرة في محيطاتنا، كانت موجة مدية هائلة ارتفعت وتحركت فوق سطح الشمس ثم اضحت جبلا ضخماً رائعاً، ظل يزداد ضخامة كلما ازداد النجم اقتراباً من الشمس. وقبل ان يتوقف عن الاقتراب كان جذبه المدي قد بلغ حداً تفتت معه هذا الجبل وارسل شظايا تناثرت في اجواز الفضاء، كما ترسل الموجات رذاذها على الشاطىء. وقد ظلت هذه الشظايا تدور حول امها الشمس منذ ذلك الحين، وهي الكواكب صغيرها وكبيرها، ومن بينها ارضنا هذه التي نسعى عليها»

وهكذا، من فم الفلكي، ومن مستغلقات عملياته الرياضية المعقدة، نسمع مرة اخرى قصة الصراع بين ربة الشمس وعدوها الذي تسمى في الاساطير باسماء عديدة.

وهذا الصراع الرمزي نجده في آخر نظريات علم الحيوان الحديث في النظرية الداروينية التي تقوم على تفاعل عاملين ايجابيين هما التحوير والانتخاب الطبيعي.

فاذا نحن حاولنا ان نحلل موضوع هذه القصه العالمية، نجد فيها جميعاً ما يوحي بان هذا الالتقاء الفريد كان نذيراً بحادث جلل ارتجت له دعامات الارض، وتعلق عليه مصير الانسان. ففي سفر «ايوب» نعلم ان اليوم الذي جاء فيه «بنو الله ليمثلوا امام الرب وجاء الشيطان ايضا في وسطهم» لم يكن حدثاً عادياً، ومثل هذا ايضاً في التقاء الله بمفستوفليوس في افتتاحية فاوست لجيته «وهي التي تأثر فيها صاحبها لا شك بسفر ايوب». ففي هاتين القصتين نجد ان المقابلة السماوية بعيدة الاثر، وان آلام ايوب وفاوست تمثل في لغة الوجدان الرمزية آلام البشرية جمعاء. وفي لغة اللاهوتيين المسيحيين نعلم ان سقوط آدم يرمز الى سقطة الانسان وعذاب المسيح يرمز الى خلاصه.

ونحن نشهد في مطلع هذه القصص جميعاً الانسان وهو في حالة من الاستقرار والغبطة. ففاوست تحيطه المعرفة الكاملة، وايوب الثروة والصلاح، وآدم وحواء البراءة والدعة، والعذارى جريتشن وداناي وغيرهن في الطهارة والجمال. وفي عالم الفلكي نرى الشمس تدور في جلالها في الفلك المرسوم لها متماسكة كاملة فريدة في وجودها المنتظم الرائع.

واحداث التغير في حالة حققت الكمال لا يمكن بغير حافز او دافع يأتيها من الخارج. فاذا كانت حالة توازن مادي كما في الشمس السادرة في فلكها ، وجب ان يظهر نجم آخر. فاذا كانت غبطة روحية او نيرفانا فيجب ان ندفع الى المسرح ممثلا آخر ، ناقداً يثير الشك في الذهن ، عدواً يبذر التعاسة والموجدة والخوف والبغضاء في القلب. وهذا هو دور الحية في سفر التكوين، والشيطان في سفر أيوب ومفوستوفليس في مسرحية فاوست .

فاذا تحولنا الى لغة العلم قلنا ان وظيفة العامل المتدخل هو ان يبعث في هذا الذي دخل عليه حافزاً يحرك فيه استجابات ابداعية قوية .

وصورة آدم وحواء في جنة عدن تشبه فترة الاستقرار والغبطة التي حققها الانسان البدائي في المرحلة الاقتصادية الاولى لجمع الطعام ، وذلك بعد ان استتبت له السيطرة على نباتات الارض واشجارها .

اما سقوطه استجابة لاغراء الحية على تذوق ثمرة شجرة معرفة الخير والشر فتمثل استجابة الانسان لحافز دفعه الى هجر هذا الكمال الذي حققه ، والى المخاطرة بالتماس تغير اقتصادي قد ينتهي او لا ينتهي باكتمال اقتصادي آخر .

ان طرد آدم من الجنة الى عالم تنكر له ، تلد فيه المرأة بالآلام والاوجاع ويأكل فيه الرجل خبزه بعرق جبينه هو المحنة التي استتبعها الاستجابة لتحدي الحية . ولكن معرفة آدم لحواء معرفة جنسية وهو الذي اعقب السقوط كان خلقاً اجتماعياً انتج ثمراته في قيام ابنين تمثلت فيهما حضارتان ناشئتان : هابيل، راعي الماشية ، وقايين ، فلاح الارض .

ونحن نسمع في جيلنا هذا نفس القصة من واحد من اكبر اساتذة البيئة واثرها في الحياة البشرية هو هيتجنتون الذي جاء في كتابه « الحضارة والاجواء » :

«منذ اجيال عديدة خلت خرج بعض المتوحشين العراة الذين لا بيوت لهم يسكنونها ، ولا نار يعرفون ايقادها من موطنهم الدافيء في المنطقة الحارة ، واندفعوا في الحاح نحو الشمال. وكان بدء سيرهم في اول الربيع ومنتهاه في آخر الصيف. ولم يفتقدوا موطنهم الدائم الدفء حتى شهر سبتمبر حين اخذوا يحسون بلذعة البرد في الليل ، التي اخذت تتفاقم يوماً بعد يوم. ولجهلهم بسبب هذا البرد ، اندفعوا هرباً منه في كل اتجاه. فمضى بعضهم جنوباً ولكن الذين استطاع منهم بلوغ موطنهم كان عدداً ضئيلا استأنف حياته القديمة ولا يزال نسله من المتوحشين البرابرة حتى اليوم. اما الذين اندفعوا في الاتجاهات الاخرى فقد فني اكثرهم وظلت منهم حفنة صغيرة رأت الا سبيل للهرب من البرد الا باستخدام اسمى مواهب الانسان ، تلك هي القدرة على الابداع والخلق . فسعى بعضهم للبحث من مأوى بحفر منازل في الارض، وجمع بعضهم الآخر جذوع الاشجار واغصانها فجعلوا منها بيوتاً وأسرة دافئة، بينما التحف بعضهم بجلود ما اقتنصوه من حيوان ودواب، وهكذا خطا هؤلاء المتوحشون خطوات واسعة نحو الحضارة فاكتسى منهم العاري وآوى الذي لا سكن له وتعلم الذي كان لا يحسب حساب غده ان يقدد اللحم ويخزنه لفصل الشتاء ، ثم استطاعوا اخيراً ان يشعلوا النار ليبعثوا في اجسامهم الدفء والحرارة . وهكذا كتبت لهم الحياة حيث ظنوا انه قد قضي عليهم بالموت. واستطاعوا بعملية تكييف انفسهم لبيئة قاسية ان يخطوا قدماً نحو الرقي تاركين وراءهم بشرية الخصب والنماء والدفء الاستوائي في بدائية مقيمة .

وهذا هو عند توينبي سر الحضارة، يحيا الانسان في استقرار ثم يحفزه دافع قوي للسعي نحو مجهول يخشاه فتحيطه المتاعب والآلام ، فاذا انتصر عليها صار رائداً لبقية البشر وتجددت فيه الخليقة جمعاء .

القاهرة

ابراهيم شكر الله

وغدا نعود

☆

وبسالف كانْ
ستظل تمتلىء السنين ونظل نوغل في الزمان
وستذكرين ،
وككل امسية نعود ، ستذكرين
وبصوتك المبتل بالالم الدفين
تلك العهودْ ،
تلك الوعود ،
تلك السنين الضائعات من السنين
وستكذبين وتصدقين
وتظل كانْ
بالامس كان
واليوم كان
وتظل تمتلىء السنين ونظل نوغل في الزمان
وغداً نعود لكي نعيدْ
ومن جديد
وبذلك السأم المبيد
نفس الحديث عن العهود
وعن الوعود
وعن السنين الضائعات من السنين
وتظل كان
بالامس كان
واليوم كان
وتظل تمتلىء السنين ونظل نوغل في الزمان

بغداد　　　　بلند الحيدري

الخالدات منهن

علية الأندلس

بقلم السيدة سعاد ابو شقرا

تحملني اجنحة الخيال ، في سويعات حلوة هنيئة ، الى بلاد نائية وبعيدة جداً عنا الان ، الى شبه جزيرة جميلة المناظر ، طيبة المناخ ، وارفة الظلال . اراضيها خضراء وماؤها سلسبيل ، الى بلاد وافرة الخيرات شامخة الجبال فسيحة الانحاء ، ذات مدن عامرة تزهى باسباب الحضارة وتزخر فيها الحياة ، فوق قصورها تخفق رايات عربية ، وفي ارجائها يرتفع بيان عربي .

هكذا الطوف على جناح الخيال ، في اراض كلها كما وصفها أحد شعراء الاندلس « ماء وظل واشجار وانهار » امتع الطرف بجمال الطبيعة ، واتأمل ملياً اللوحات الخلابة ، ثم انطلع الى مظاهر الحضارة ومباهج الحياة الآمنة ، فيشغلني عن التطلع صوت المؤذن هناك ، فاصغي بنشوة الى الاذان ثم استرسل في تأملات بعيدة واخلو الى السكون ، حتى يقطع علي سكوني صوت ناي يرتفع هنالك ، وصوت مغنية في احد القصور البهيجة .

تلك اوقات هنيئة ، تنقلني فيها قوة خيالية الى الاندلس العزيزة ، الى بلاد المجد المفقود .

وكثيراً ما يقف بي الطواف في قرطبة « جوهرة العالم » فاسير في شوارعها ، واجول في جنباتها ، فتبهر نظري قصورها الشامخة ومبانيها الفخمة ، وتدهشني جناتها تعطر الجو باريج الازهار ، وانتقل مبهورة نشوى بين الاحياء والجنات والمساجد والمكاتب والمدارس والنوادي ، حتى اقف فجأة عند قصر عالي البنيان ، على جنباته ابهة وعظمة ، وفي تشييده قوة وسلطان ، وعلى شرفاته امارات عز ومجد ، تتلألأ فيه الانوار وتشع في جوانبه مظاهر الثراء ، ومن ردهاته ترتفع اصوات المتناقشين ، ومنشدي الاشعار تخالطها احياناً انغام موسيقية عذبة فاسائل القوم : عن القصر ومن ساكنوه ؟؟ فما البث ان اسمع الجواب الموسيقي يقول : هذا قصر ولادة « علية الاندلس » ابنة الخليفة المستكفي . هذه الخيالات تنقلني الى ذلك الجو السحري الفاتن ، وتريني تلك العصور الغابرة حافلة بمباهج العز والحياة ، باقية الى الابد في حنايا التاريخ .

ولئن ملأت اسماعي تغاريد الحسان الاندلسيات ، واشعار غانيات الاندلس الرقيقة ، فترددت في ذاكرتي اسماء خنساء المغرب « حمدونة » و« نزهون الغرناطية » ، و« حفصة » ، و« حسانة » فانه لم يسترع انتباهي في تلك السويعات غير اسم تردد كثيراً على شفاه الأندلسيين ، هو اسم ولادة ، الاميرة الجميلة ، والشاعرة الاندلسية الكبيرة .

ولولادة مكانة عالية بين شعراء الاندلس وشاعراتها ، وهي ذات شخصية فذة ، جمعت بين عراقة النسب الاموي ، والذكاء العربي المفرط ، والجمال الساحر والصبا الاخاذ ، هذا الى لباقة وظرف في الحديث ، وسعة في الاطلاع ، وحلاوة في البيان ، كل هذا في جو القصور البهيج ، وبين الجواري والحواشي .

لمع اسم ولادة على اثر مقتل ابيها الخليفة المستكفي ، يوم ظهرت للناس مستخفة بتقاليد الحجاب ، فسنت لذاتها سنة السفور ، تشق لنفسها طريقاً بين جمهرة العلماء والساسة ، فكانت بذلك زعيمة حركة اجتماعية خطيرة ، اذ كانت اول من كشفت عن وجهها نازعة الحجاب الثقيل الذي طالما وقف سداً منيعاً بين المرأة والحياة الاجتماعية الراقية .

ولا غرو ان يكون لسفورها هذا ، وظهورها امام الرجال تناقشهم الادب والشعر والسياسة والعلوم ، اثر كبير بين بنات قومها وهي الاميرة وهن بنات شعبها المقلدات ، يحذون حذوها ويقتفين اثرها . وكان من جراء ذلك ان نشطت حركة السفور وازدهت مجالس الادب ونوادي العلم بالاديبات الاندلسيات والشاعرات المجيدات ، ولمعت في تلك الاونة اسماء شاعرات الاندلس الرقيقات .

لكن ازهر تلك « الصالونات » الادبية الواناً في ذلك العصر كان قصر ولادة التي استمالت الى مجلسها ــ بما كان لشخصيتها من قوة ولبيانها من اثر ــ زعماء عصرها وعلماءه ، فكان قصرها بذلك ملتقى الوزراء يتداولون امور السياسة ، ومقصد الشعراء والعلماء ورجال الفكر والادب من الوسط الراقي والطبيعة العالية يتساجل الجميع امامها ، ويتنادرون ويتذاكرون في الادب والشعر والنقد والعلوم .

وكانت ولادة خلال كل ذلك ، سيدة « الصالون » تذكي حماسة جلسائها ، وتضفي على القاعات الفسيحة والمناقشات الجميلة ،

الواناً اخاذة وجواً ساحراً، لا سيا وهي اديبة بالفطرة وشاعرة مجلية بين اقرانها وقريناتها .

اما شعرها فهو قوي السبك، سلس السياق. وقد قال عنه مؤرخو الادب : انه اقرب الى شعر الرجال منه الى الشعر النسوي. وولادة شاعرة قديرة على خلق المعاني الجميلة ، في ابياتها رنين مستحب وكياسة ولباقة . وما لدينا من اشعارها يثبت لنا انها لم تخرج على مألوف ما كان يتبع في الشعر في ذلك الوقت ، لكن لغتها عامرة ومعانيها لطيفة ، هذا في ما نظمته في الغزل .

اما الاغراض التي نظمت فيها ولادة في ما بقي لنا من شعرها ، فالغزل الرقيق الذي لم تجارها فيه شاعرة ولم يفقها فيه شاعر على قلة ما وصل الينا منه نوضاً آله مابقي

وهناك ايضا الهجاء الشديد الذي يعافه الذوق فنستغربه من امرأة مرهفة الحس، جميلة البيان كولادة ، هذا الهجاء الذي سارت به نحو المجون المستنكر.

ولئن لمع نجم ولادة في سماء العلم والشعر ومجالس الادب والسمر ، فقد لمع ايضاً في سماء الحب ، وللمعانه بريق لم تطفئه عاديات السنين .

وان كانت ولادة قد استخفت بتقاليد تلك الايام ، غير عابئة بطقوسها، متحررة كل التحرر مما يحول بينها وبين الحياة الطلقة، ومن قيود المجتمع التي كانت مسلمات الاندلس يتمسكن بها الى حد بعيد ، مع انهن كن يعشن في اوروبا، فان المؤرخون مجمعون على انها كانت شريفة عفيفة لم تنزع الى ريبة على رغم حياتها الحرة ومذهبها المسلكي الذي كانت تجاهر به وتعلنه ببيتين من الشعر كتبتها على تاجها عن يمين وشمال تقول :

انا والله اصلح للمعالي
وامشي مشيتي وأتيه تيها
امكن عاشقي من لثم ثغري
واعطي قبلتي من يشتهيها

كان المتوددون الى ولادة، والمأخوذون بجمالها وقوة شخصيتها كثيري العدد ، يؤلفون النخبة الممتازة من رجال قرطبة وعلماء الاندلس . لكنها لم تحب حباً صادقاً الا مرة واحدة في حياتها ولم يكن بطل غرامياتها الا واحداً ، هو الشاعر الاندلسي الكبير الوزير ابن زيدون .

ويظهر ان ادب الشاعرين العالي، وخصب شاعريتها القوية قد ساعدا على الجمع بين قلبيهما وعلى التأليف بين روحيهما.

لكن حبهما هذا جرَّ عليها معاً آلاماً وعذاباً. لقد كان ابن زيدون في بدء حياته يقوم على خدمة «ابن جهور» رأس الحكومة في قرطبة، ولهذا كان باستطاعته دائماً ان يتقرب الى ولادة ويلم بقصرها، فيتاح بذلك للمحبين ان يتساقيا كؤوس الهوى. لكن عندما اشتهر امره وامر ولادة، وطار نبأ حبهما في الانحاء غضب عليه «ابن جهور» وزج به في السجن ثم نفاه عدة سنوات. فكان من الطبيعي ان تؤلم الاميرة الشاعرة تلك الصدمة، ويرمضها ذلك الحرمان، فتسترسل في ابياتها الجزلة الرقيقة تقول:

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا اخا البدر ضياء وسنا حفظ الله زمانا اطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت اشكو قصر الليل معك

وفي هذه الابيات وحدها من جمال السبك، ورقة الشاعرية وحلاوة اللفظ المعبر عن مضطرم الشوق ولاعج العاطفة، ما يكفي لجعل ولادة شاعرة متفوقة بين كبار شعراء عصرها.

وتبرز شاعرية ولادة فياضة بمستعر الحب في هذين البيتين قالتهما لحبيبها ابن زيدون، مبينة عظم هذا الهوى الذي ملأ قلبها وسيطر على كيانها فانطلقت بصراحة جريئة تقول:

ترقب اذا جن الظلام زيارتي فاني رأيت الليل اكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح، بالبدر لم يطلع، وبالنجم لم يسر

ويلفت نظري، وانا ادرس شخصية «علية الاندلس» غيرة الشاعرة الشديدة على شاعرها ووزيرها المحبوب ابن زيدون، فهي - وان تمتعت بتلك الشخصية القوية، والمكانة العالية - لم تكن لتستطيع ان تخفي انوثتها، وهي ككل امرأة والهة، تلهب نفسها وتقض مضجعها نار الغيرة. وقد حز في قلبها مرة ان يكون لغيرها في قلب ابن زيدون محل او مكانة. ومما يروى عن ذلك، ان غنت عتبة مرة - وهذه جارية لولادة - في حضرة ابن زيدون. فسألها هذا الاعادة بغير امر ولادة وكان قد بدا عليه الاعجاب الشديد. فاضطربت شاعرتنا عند ذلك وامتقع لونها، وسرت في كيانها نفحة نار احرقتها، ولم تستطع ان تخفي تجهمها وتأثرها، فعاتبت جاريتها ولامتها ثم مالت الى ابن زيدون تقول:

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخير
وتركت غصنا مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بانني بدر السما لكن ولعت لشقوتي بالمشتري

لكن حادثاً كهذا، لم يكن الا امراً بسيطاً غير ذي بال، مر مراً سريعاً دون ان يترك اثراً في قلب المحبين، وعاد الشاعران بعد ذلك الى سابق حبهما، يتقاسمان حلاوة الايام وينعمان بساعات الوصال.

بيد ان الايام كانت اقسى من ان تسمح للحبيبين باستمرار اوقات الوصال، وبدوام نعيمها هذا، اذا اضطر الشاعر ان يهجر قرطبة ويلتحق بالمعتضد صاحب اشبيلية، فكان عنده كوزير. ولما طالت غربته ويئس من لقيا حبيبته، بعث الى ولادة بقصيدته الشهيرة التي عارضها امير الشعراء احمد شوقي، يوم نفي الى الاندلس بالقصيدة الخالدة: «يا نائح الطلح اشباه عوادينا» وتعد قصيدة ابن زيدون من اجود الشعر وارقه، وهي اجمل ما قيل في تصوير شوق المحبين واستدامة ودهم.

لقد كان لبعد الشاعر عن محبوبته، اثر كبير في انتاجه، فهي الموحية اليه وملهمته في اكثر ما قال، وقصيدته برهان بليغ على ذلك، وسجل خالد لذلك الحب الخالد وقد استهلها ابن زيدون يقول لولادة:

اضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

الى ان يقول مستديماً عهدها:

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ان طال، ما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت اهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم امانينا

وكذلك بقيت ولادة على حبها له ووفائها، فبعثت اليه تقول:

الا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل حب بما لقي
تمر الليالي لا ارى البين ينقضي ولا الصبر من رق التشوق معتقي
وقد كنت اوقات التزاور في الشتا ابيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد امسيت في حال قطعة لقد عجل المقدور ما كنت اتقي

وقد عاشت ولادة بعد ذلك محرومة، وبقيت على عهدها عزباء مدى حياتها. ومما يؤسف له ان تكون اشعارها مفقودة مع ما فقد من كتب الاندلس الثمينة.

ان شاعرة تلقب «بعلية الاندلس»، ويرتفع شعرها الى هذا المستوى العالي من الجودة والرقة والصفاء، وتحيا حياة حرة كحياة ولادة، وفي جو شعري كجوها، وتعمر طويلاً، لا بد ان تكون كثيرة الانتاج وافرة الاثار من غير شك، فضلا عن انها تعد استاذة لمدرسة تجديدية. لكن ما وصل الينا من اشعارها لا يتجاوز العشرين بيتاً. وقد توفيت ولادة في قرطبة سنة ١٠٨٧ للميلاد.

سعاد ابو شقرا

غروب الشمس

بقلم فتحي غانم

ماء البحر يغسل الخطايا ... في ساعة الاصيل القت بنفسها في البحر . واحست بالماء يغسلها . ويتقاطر من شعرها ووجهها ، والموج يقبل عليها فترتفع معه وتهبط في رشاقة ويسر .

وعلى الشاطىء ، وقف «عم علي» الحارس ، يرقبها في سكون واطمئنان ، كانت وحدها في البحر . ولكنه لا يخشى عليها ، فهو يعرفها لانها كثيراً ما تجيء في ذلك الوقت ، وحيدة لا يرافقها احد ، وتسبح في الماء كأنها سمكة !

و«عم علي» يفضل ساعات الاصيل . حين يخلو الشاطىء من آلاف المخلوقات التي تعج به في الصباح ، يتشابه عليه الكل رجالا ونساء ، و« الصفارة » في فمه ، وعيناه في كل مكان ...

اما ساعات العصر . فلا احد غير الخادمات . زينب وهانم وام السعد ... يقعدن في الماء بجلاليبهن ، كلما اقبلت موجة انتفضن خائفات وتصايحن ، وتلتصق ثيابهن المبللة باجسادهن ، ويظهر لون اللحم من خلف الثياب ، وتتضح الثنيات ، و«عم علي» يرقبهن بعينين ثابتتين ، تكادان تلمسان اجسادهن من بعيد .

وعلى طريق الكورنيش أشار الطفل لامه .

ـ البنت وحدها في البحر ـ نعم .

ـ ولماذا هي وحدها في البحر ؟

ـ لان الناس تذهب الى البحر في الصباح

ـ ولماذا لا تذهب البنت الى البحر في الصباح ؟

ـ لانها كانت مشغولة .

ـ اكانت تطبخ في البيت ! ـ نعم .

واستند درويش بك عالم الآثار ، الى الحاجز الحديدي للطريق . وقال لصديقه في صوت اجش عميق : ـ هذا منظر بديع . ـ الشمس قبل الغروب ـ والفتاة في البحر .

وارسل درويش بك عينيه في الافق . لقد عاش حياته مع قدماء المصريين . حدود عالمه نهاية الامبراطورية . افراحه مع مينا وخفرع ، أطماعه ومطامحه مع تحتمس ورمسيس ، احزانه مع هوفر وبسامتيك وغزو قمبيز لمصر .

وكأن الفتاة التي تسبح في البحر اميرة فرعونية . وتحركت اشجان درويش بك فردد شعر شاعر مجهول :

« حبيبي على الشاطىء الآخر
بيني وبينه ذراع نهر
وفي النهر تمساح
ولكني هبطت الى النهر لاعبره
الارض والماء تحت قدمي سواء
لان الحب يمنحني القوة والثبات »

وعلى الضفة الثانية من طريق البحر وقف ميتشو امام المناضد الخالية ، وقد فرغ من اعدادها استعداداً لقدوم الناس ونظر ميتشو الى ساعته ثم الى الشمس .. لقد اوشكت الشمس على المغيب . والشاطىء والبحر خاليان ، ومع ذلك لم يحضر احد .

واحسست بالماء دافئاً ، وتقلبت فيه . هذا هو ما اريد : البحر والهواء والوحدة ، بعيداً عن الناس ، احس ان ما لصق بي لا يغسله الا بحر ... كنت الى جانبه في السرير ، والغرفة معتمة ، وانفاسه تملأ انفي ، والعرق يبلل جبهته ، وشعره منفوش ، واحسست فجأة وكأنني في صندوق للقمامة ، وزكمت انفي رائحة كريهة ، وتقزز جسدي ، فقمت وارتديت ملابسي على عجل ، وخرجت ، وهو ينظر الي في بلاهة وعدم فهم . الى متى سأظل معه ، انه لن يتزوجني ، وانا لا اريد زوجاً على شاكلته ، انه منفر تافه قذر ، ولكني اعود اليه دائماً ، كفراشة تحوم حول النار . وأبي عجوز مهدم لا يقوى على الحراك . فيما مضى كان



قويا ، ولكنه كان شاذ الطباع ، يربي الكلاب الضخمة ، وعضه يوماً كلب ، فهجم عليه ، وكسر فكيه ، وخنقه بيديه . وامي تلعب البوكر والكونكان ، وفي قبعتها ريشة حمراء او خضراء ، واذا رأتني اعطتني مالاً كثيراً لانفقه ، ولا تقبلني حتى لا تفسد الاصباغ ... ويسألني أبي وانا خارجة لاقابله : - الى اين ؟

واجيبه في برود : - الى صديقتي .

هل اقول له الحقيقة ؟ هل اكلمه عن السرير والحجرة والعتمة ! لو قلت له لما فعل شيئاً لانه محطم وعجوز . سيسمع ما يغضبه ويذله ، ولكنه سيسكت بلا حول ولا قوة . ان يديه اللتين قتلتا الكلب ترتجفان اليوم ضعفاً وهزالا .

وتململ «عم علي» في مكانه . هل انفخ في صفارتي ؟ انها تتمتع بالبحر . وهي تجيد السباحة . بل يجب ان اصلي العصر . لقد اوشكت الشمس على المغيب .

وقال الطفل لامه : - ستسقط الشمس في البحر .

وخرجت الام فيما تفكر فيه .

وسأل الطفل : - لماذا تسقط الشمس في البحر .

وترددت الام امام السؤال الخطير !. انه لا يسأل عن ابيه الذي مات . ولا عن مستقبله في الحياة . انه لا يسأل الا عما يراه . وأصر الطفل .

- لماذا تسقط الشمس في البحر . - انها تنام هناك .

واغمض درويش بك عينيه وفتحهما كانه لا يصدق ما لا يراه ، كان سابحاً في عالمه الفرعوني وفي قلبه خشوع رهبة . الشمس تغرب ... انها السفين الذي يحمل الموتى الى الشاطىء الاخر . كل المقابر هناك في الغرب ولا يصح الدفن بعدالغروب . لان الشمس تكون قد غادرت عالمنا الى العالم الاخر ... هذه اللحظة حاسمة ... لانها تفصل بين عالمين .

وجلس ميتشو على احد المقاعد .. لا يجب ان يداخلني اليأس . عام ٣٢ كنت على وشك الانتحار لان امي كانت مريضة وليس معي ثمن الدواء . طوال الليل لم يأت احد الى المقهى يدفع لي قرشاً واحداً ، وفجأة دخل البك السمين ومعه الراقصات وفي الركن شربوا وثملوا واعطاني خمس جنيهات ... خمس جنيهات ... خمس جنيهات .

اني اكرهه ... اني اكرهه ... وضربت يدها الماء . سينهض من السرير . ويفتح النافذة ، فيدخل النور . وفي الحمام يدلك جسمه « بالافندر يا ردلي » ويرتدي حلته الزرقاء ، ويركب عربته الحمراء ، ويسرع على طريق البحر ، ليقابل « كارمن » و« جوليانا » . ويذهبون الى السينما ، و«رباسي» و« بودرو » و« اليونيكا » ، ويشربون الشاي ويأكلون « الجاتوه » ، « مارينج » و« ارجنتان » ، والموسيقى تعزف « الفالس » ؟ ورقصة النار ... آه لقد ابتلعت الماء ، لقد علا الموج ... ابتعدت عن الشاطىء ، اشعر بفتور في ساعدي ، هل ابقى ام اعود ؟ إن الشاطىء يبدو خالياً لا احد فيه ، لا احد ينتظرني هناك . التيار يمنعني من العودة . ولماذا اتلهف على الرجوع ؟ سانتظر قليلا . ولكن الماء غير مستقر تحتي ، إن بغضي له يسري في جسمي كالسم ، الماء المالح يملأ جوفي ، ابي لا يحب احداً ، انه يكره امي . ويكرهني ، يكرهني لاني ابنتها ، امي تلبس كانها « مانيكان »... وقصت شعرها عند الحلاق كبنت العشرين ، آه لو يأت من يتزوجني ، لانتقمت منه ، في ليلة الزفاف ساقص عليه كل ما فعلته مع ذلك الشخص الكريه ، ساحكي له عن الغرفة والعتمة ، و« ياردلي » في الحمام . سانتقم .. سانتقم ... سانتقم عندما اراه . لقد ابتعدت عن الشاطىء ، الى اين اذهب ... ولكني لا اريد العودة ... اني في حاجة الى البحر .

السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله . وسلم «عم علي» على الملكين الواقفين عن يمينه وعن شماله ، ومسح بيده على وجهه ، وامتلأت عيناه بنور وضاء ، وجال ببصره على سطح الماء ... لقد خلا البحر من الناس ، وعادت ام السعد وزينب وهانم الى سيداتهن . قرص الشمس يلمس الماء ، وبعد لحظات يحين وقت الانصراف .

قام ميتشو واوشك ان يرفع رأسه الى السماء ، ها هو الغروب اين الناس ، لا احد جالس الى المناضد ، هل نفد الناس من على وجه الارض ، هل غرقوا جميعاً في البحر ؟

وشخصت عينا درويش بك الى الشمس . السفين وهو يختفي في عرض البحر . وهمس الى صديقه .

- لقد اقلعت السفينة تقل موتى اليوم ، حيث يلقاهم اوزوريس على رأس اثنين واربعين قاضياً ، وفي يد اوزوريس ريشة الحق والعدالة . ويقدم الوافدون اليه قلوبهم ، ويزنها اوزوريس : القلب في كفة ، والريشة في كفة ... هناك المحكمة العليا التي تحكم في مصائر الناس .

- لماذا سماء حمراء .

وقالت الام - لانه قد مات اليوم ناس كثيرون .

القاهرة — فتحي غانم

بعض القيود !

☆

عندما تورق الكآبة في صحراء نفسي الحزينة المسكينه . !
أتمنى لو كنت دودة حقل تلتوي في شقوقه مستكينه
أتمنى لو كنت ذئباً شريداً لم تلوث خطاه أرض المدينه
أتمنى لو كنت طفلا ضريرا عصبت راحة الظلام عيونه
أتمنى لو كنت جذعا قديما هرمت حوله المياه السجينه
أتمنى لو لم أكن عبد حقدٍ .. وجنون .. وغيرة .. وضغينه
أتمنى لو لم اكن عبد هذا القيد .. هذي الاصابع الموهونه
ثم أرتد في انفعـال عنيف ساخراً من كآبتي الملعونة
لحرام على الذي يغرس الانوار أن يسمع الظـلام أنينه

القاهرة — محمد مفتاح الفيتوري

قصة: الشباب العربي هي قصة القطيع الضال في ليالي البيد.

يفتقد الراعي، وينبو به السبيل، وتعصف الريح بثغائه، فيرتد الى مسامعه هزيماً من الذعر القاتل، واليأس المرير..

وتتراقص أمامه اشباح الذئاب الجشعة، تسيل في لعابها شهوات الافتراس، وتشيع في عيونها غرائز القتل والتدمير.

في هذا الليل الاعمى، يتطلع الشباب الى الزعماء، يستلهم الرشد، ويستوحي المنهاج، ويقتبس، لعله يجد على النار هدى.

فاذا إلهامهم تغرير، واذا وحيهم وصولية تفعم الخزائن، وتتخم البطون على حساب هذا الدم الطاهر الحر البريء!!

وإذا رشدهم تضليل، يدفع الشباب الى أودية التيه في دياجير الصحراء الجديبة القاسية، يضرب فيها على غير رشاد، وهو يهتف من طول ما ارهقه الجهد المضني: أين الطريق ؟؟

اين الطريق .. ؟

..وقد استيقظ على الصيحة، بعد أن اجهده طول السرى، وأدمت اقدامه الاشواك القاسية، واقذت عيونه الرمال السافية، واذوى عوده لفح الهجير.

فاذا هو لم يزل يدور حول نفسه، لم يتقدم خطوة الى الهدف.. إن كان له هدف.

وتتقشع العجاجة المتدججة، وتبدو لعينيه الحقيقة السافرة، ويدرك - بعد الاوان.. أنه ضحية لؤم الحادي وتغرير الدليل.

ويفترش صخرة اليأس، مطأطيء الهام، مائل العنق، محدودب الظهر، خائر العزم، ساهماً، يفكر كيف يعود، ولكن أين الطريق ؟؟

اين الطريق .. ؟

أين الطريق ؟!

بقلم رضوان ابراهيم

☆

..وقد عاد نضواً، اضناه الهم، وهده اليأس، فاستسلم !!

لقد كان شاباً تنبض الفورة الوطنية في اعماقه، وتغلي دماء البطولة في اعراقه وتصرخ في دمائه هواتف المجد، فعاد حطاماً، يتقاطر من جبينه عرق الخيبة،

وقد ذابت في قطراته روح الوطنية، واضمحلت في نفسه دوافع البطولة، وتبددت في مسامعه هواتف المجد العريق.

وتبخرت في ضباب اليأس قوى الشباب ومظاهر الفتوة.

وصار الدم الحار ماء فاتراً ما زال راكداً حتى أسن.

وأن الشباب انيناً خافتاً، تضج نبراته بالالم واليأس.. يتساءل وهو يتلمس طريقه الى النهاية المحتومة: اين الطريق ؟؟

> اين الطريق ؟! كتبت في العام الماضي وبعد ان نشرتها « الأديب » وقعت بعض الحوادث المعروفة في بعض البلاد العربية مما جعل، بهذه المناسبة صدور « الأديب » وفيه « اين الطريق ؟! » مستحيلا فاضطررنا الى اتلاف بعض صفحات العدد وفيه هذه القطعة وغيرها ايضا من القطع والمقالات التي تشابهها، وابدالها بغيرها مما لا يقع تحت الحظر
>
> اما الان وقد زالت الموانع بعود الأستاذ رضوان ابراهيم، بعد عام، فيقدم من « اين الطريق ؟! » الى القراء.
>
> « الأديب »

اين الطريق .. ؟

..وهذه جريمة قتل من المأخوذ بها؟

إنها بدع في الجرائم، لانها قتل شباب امة تكافح في سبيل الحياة العزيزة المجيدة!!

ولكن مرتكبيها - كذلك - بدع في الجناة، لانهم هم الزعماء والمتزعمون !!

إن زعماءنا قد اصبحوا دعاة هزيمة، وعوامل فرقة، وبواعث شحناء..

يصيحون صيحاتهم المنكرة في الظلام، فينشرون الذعر والهلع في الصفوف، ويظن القطيع الوادع أنه قد بوغت، فيهب بعضه في وجوه بعض، ويقتتل أفراده، حتى يفني أولهم آخرهم - او يكاد !!

وهؤلاء في ابراجهم، يتمتعون بمناظر اللهيب الذي يجتاح «روما».

لقد علمنا الزعماء كيف ينهش بعضنا لحوم بعض، لنصبح رمماً بين الامم !!

وعلمنا الزعماء ان يفقأ بعضنا عيون بعض، لنعيش في الظلام !!

وعلمنا الزعماء كيف يسفك بعضنا دماء بعض، لنعود الى حياة الوحشية الاولى!!

..بينما يرتشفون من هذه الدماء المراقة رشفات مستساغة، تبعث في اعصابهم الهدوء، وفي رؤوسهم النشوة !!

***

أيها الزعماء !

لقد تفتحت بصائر الشباب، وتجلت له دخائلكم السوداء، وإن الشباب الذي قدسكم سيعود فيلعنكم لعنة ابدية.

إن الشباب لا ينسى، ولكنه يغتفر!!

وقد اغتفر الكثير من خطاياكم، حتى لم يعد يستطيع ان يغمض على القذا بعد اليوم.

فاحذروا..احذروا غضبة الشباب!!

لقد انتزعتم من يده القلم، وباعدتم بينه وبين العلم، ونحيتموه عن العمل،

الـوهـم خـوف

بقلم الدكتور ابو مدين الشافعي
مدير معهد علم النفس بالقاهرة

يتعرض الكثير من الناس الى داء الوهم الذي يصور لهم اخطر الامراض . ويعتقد اغلب الناس أنه من السهل تخليص الموهوم من وهمه اذ يكفي ، حسب التفكير العادي ، ان ننهى الموهوم عن وهمه لنراه يقلع عن تصور الاخطار ويرجع اليه الشعور بالاطمئنان .

ولكن المشاهدة الواقعية والتجربة تثبتان خطأ هذا التفكير لان الموهوم لا يقتنع بالحجج القوية التي تحاول أن تبعد عنه الوهم ، بل نراه في اغلب الاحيان يدرك بالمنطق أن كل ما يعتقده من اخطار تهدد صحته او كيانه او مركزه لا اساس لها من الواقع وأنها من نسج الخيال ورغم ذلك يشعر بالخوف . وهذا الازدواج الذي يفصل بين الوهم والادراك عند الموهوم يجعلنا ننظر الى الوهم كمرض يصيب الشخص المعرض لخوف مسيطر على الشعور .

وهذه الملاحظة المؤيدة بالامثلة الحية تثبت لنا ان الشعور بالخوف يعرض الشخصية كلها الى التفكك ، الذي يؤثر في القوة الجسمية والقدرة على التكيف الاجتماعي . فالشخص المعرض للخوف لا يقدر على استعمال قواه الجسمية ، ويشعر من ناحية ان عضلاته سليمة وقادرة في الواقع على بذل المجهود الملائم للكفاح المطلوب ولكنه يشعر في نفس الوقت بتخاذل يمنعه عن تأدية الفعل المطلوب .

ان اغلب الشبان يشكون من عجز يعتريهم فجأة في مجابهتهم للمواقف المحرجة وكثيراً ما اسمع بعض الشبان يكرر هذه العبارة : لا استطيع ضرب خصمي رغم ما اشعر به من قوة فاني اجمع كفي وأهم بالضرب مدافعاً عن نفسي ولكن قوة ما خارجة عن ارادتي تمنعني من القيام بالفعل واشعر بعد ذلك بحيرة وتساؤل عن حالي . « واتعرض لتضارب فكري يقلقني ويجعلني اتصور اخطر المواقف » .

وسخرتموه لاهوائكم الضالة .

واحتكرتم لانفسكم – من دونه – مسائل الوطن ، وفرضتم اشخاصكم – لا مبادئكم – على مشاكل الشعب ، وتعسفتم بحاضره ومستقبله ، ثم ملأتم رأسه بالاكاذيب ، وملأتم يديه بالمتفجرات ، واغريتموه باخوانه في الوطن ، وشركائه في الكفاح اولئك الذين زعمتموهم اعداءكم

فراح يهدم في كيان الوطن ، بعد أن خدعتموه عن الدخيل ، وصرفتموه عن المستبد ، وألهيتموه عن المستعمر !!

فاحذروا ايها الزعماء . احذروا يوماً يصيبكم من هذا الدمار شظاياه ، او يتطاول اليكم لهيبه ، او يعميكم دخانه !!

إن الوطن لابنائه لا لكم ، والمستقبل للشباب الذي تدعون لانفسكم حق التحكم في مصائره .

ولم يعد لكم من بقايا حياتكم المحطمة الا الرحمة او اللعنة ، وانتم – منذ اليوم – كلكم على شفة التاريخ . فاحذروا دائماً ..

احذروا غضبة الوطن ، وازدراء الشباب ، ولعنة التاريخ !!

***

وانتم ايها الضاربون في ظلام الصحراء الطارقون أبواب الامل .

المريقون الدماء حارة طاهرة على اعتاب الحرية المقدسة

الرافعون اعلام الكفاح

المتدفقون على ساح النصر في سبيل تحرير الوطن العربي الحبيب ..

واصلوا الطرق العنيف ، حتى تتحطم معاقل البغي ، وتتهاوى عن ارائكها الاصنام

واترعوا كأس الحرية من كرم الارواح

وتدفقوا في مواكب الايمان ..

حتى مطلع الفجر !!

القاهرة رضوان ابراهيم

وتحليل بسيط لمثل هذه الحالات يكشف عن وجود خوف كامن من شيء قد يكون بعيداً عن موضوع العجز الذي يظهر فيه الضعف . ونذكر لذلك مثل شاب كان يخاف على امه من ان يستفحل مرضها وتتعرض للموت وكان يخفي هذا الخوف على الناس وعلى نفسه لان التفكير في الموضوع قد يحققه . ولكن هذا الاخفاء لم يكن قاضياً على الخوف الموجود فعلا في نفس الشاب الذي بدت عليه أنواع جديدة من الضعف في افعاله ومواقفه . ونجد الخوف المسيطر على النفس يعرضها لضعف عام يجعل الشخص قابلا لكل الاوهام . وتظهر هذه الاوهام فعلا في صورة احساسات وتصرفات تمثل امراضاً مختلفة . وملاحظة هذه الاوهام عند كثيرين من المرضى تثبت ان هناك صلة وثيقة بين الخوف والوهم .

وكل انواع الضعف تؤدي الى ظهور الاوهام والتصورات المخيفة . وترى بعض الاشخاص يتخذون الاحتياطات المختلفة كأنهم فعلا مهددون بالخطر . وهكذا نجد نوعاً من الدور والتسلسل بين الوهم والخوف اذ يولد الوهم الخوف وكذلك الخوف يحدث الوهم .

وكل الاضطرابات الناشئة عن مواجهة المواقف الجديدة عند الشباب تحدث نوعاً من التوتر النفسي وتؤدي الى ظهور الاوهام . وهذه الحالات النفسية المعقدة التي نسميها عقداً نفسية ما هي الا حلول وهمية يندفع اليها الشخص اندفاعاً ليفر من الخوف .

ونجد عند بعض الشباب الذين ربوا تربية الدلال وسهلت لهم كل الامور في حياتهم ولم يكتسبوا مرونة الخضوع لصعاب الحياة يتولد عندهم نوع من الخوف من الحياة ويتمكن هذا الخوف من نفوسهم ويظهر في صورة خوف من الامراض .

ونذكر حالة فتاة كانت تتمتع بعطف امها . وبعد وفاة الام شعرت الفتاة بفراغ ولد عندها شعوراً بالخوف العام فاصبحت تتصور اشباحاً تطاردها في كل وقت وكانت هذه الاشباح تظهر في صورة اشخاص معينين هم الاشخاص المعادين لها . وكانت في بعض الاحيان تسمع اصواتاً غريبة تهددها بالقتل وتصور لها اخطاراً مختلفة كفقد شرفها مثلا او الاختناق ليلا وتحولت المخاوف من الادراك الى الحركة وصارت تخشى شرب الماء متوهمة انه مسموم . وكذلك صارت تخشى الاكل خوفاً من التسمم . ومركز هذه الاضطرابات كلها راجع الى ان فقد هذه الفتاة لامها اشعرها بالوحدة المقرونة بالوحشة والانفراد المصحوبين بالخوف المبرر للوهم .

وكذلك نلاحظ في الامم المستعمرة نوعاً من الضعف النفسي وميلا نحو السلبية والهبوط ورغبة في تفادي كل ما يتطلب الكفاح لان الدولة المستعمرة تحاول دائماً ان تقتل الطموح وتبث الرعب الذي يجعل الشخص يتصور الاخطار البعيدة . ويشعر الشخص المستعمر بالقيود التي تمنعه عن القيام بمحاولات كثيرة وتعوده هذه القيود الشعور بالخوف والتردد والوهم .

وقد يتساءل القارىء عن العمل الحاسم الذي يمكننا ان نقوم به لنقضي على هذا الضعف عند الانسان فاقول إن التغيير يحتاج الى تربية نفسية طويلة لان الداء الكامن نتيجة اهمال طويل، ويمكن للانسان في اية لحظة من لحظات حياته أن يوحي الى نفسه بقوة عدم الخوف عامة والخوف من الموت خاصة لان الموت هو اقصى نهاية الاخطار المتسلطة في صورة اوهام . وما على الشخص الا ان يتصور ان هذه النهاية التي يخشاها قد تحدث صدفة في مرحلة من مراحل حياته ولكنها النهاية المحتومة التي لم يستطع الطب التغلب عليها .

الدكتور ابو مدين الشافعي

وفي مثل هذه الحال يمكننا ان نقول بالمثل الشائع «وداوني بالتي كانت هي الداء » اي ان الخوف من الموت الذي يضعف الارادة والشخصية قد يصل بالشخص في حالة اليأس الى عدم الخوف من الموت فيتغلب سلوك المغامرة بعد ما كان محصوراً في قيود الاحتياط ولكن هذا التغيير يحتاج الى عمل منظم يدفع الشخص الضعيف بايحاء تدريجي الى الاعمال الايجابية . ويستحسن ان يكون الايحاء غير مباشر فتؤثر على الشخص الضعيف بذكر الامثلة العديدة لاشخاص خاطروا بحياتهم وانتهت مخاطرتهم بفوز كبير .

القاهرة — ابو مدين الشافعي

مع بربارة يونغ في كتابها : هذا الرجل اللبناني

بقلم عيسى الناعوري
صاحب مجلة القلم الجديد ورئيس تحريرها

كانت لحظات ممتعة جداً تلك التي قضيتها مع الكاتبة الاميركية برباره يونغ في كتابها النفيس « This man from Lebanon » الذي تتحدث فيه عن صديقها الخالد جبران حديثاً يفيض بالاخلاص والوفاء لشخص جبران ، وبالايمان والتقديس لمبادىء جبران ، وبالاعجاب والتقدير لأدب جبران وفنه .

وبرباره يونغ هي سكرتيرة جبران ورفيقته طوال السنوات السبع الاخيرة من حياته ، أو هي «القابلة» التي تلقت بداهـا ميلاد روائع جبران الخالدة منذ خريف سنة ١٩٢٥ حتى الساعة الاخيرة التي ودع فيها دنيا الادب والفن ، وألقى آخر تحية من قلبه وعينيه على شعاع الشمس ومفاتن الوجود ، ثم كانت وكيلته الادبية بعد وفاته . فهي إذ تتحدث عن جبران ، الذي تدعوه في الصفحة ١٠٧ من كتابها « my well-beloved friend » إنما تكون خير من يتحدث ويصدق في الحديث عنه ، وخير من يفهم افكاره ومبادئه ، التي شهدت مولد القسم الاكبر منها ، وشاركت في تحبيرها وطبعها ، ووقفت على الدقائق الخفية من حياة جبران « الانسان » ، تلك الحياة التي تعمد بعض الناس أن يشوهوها ويجعل منها بؤرة مخاز وشهوات حيوانية .

تسرد برباره يونغ قصة اتصالها بجبران في مقدمة الكتاب ، فتذكر انها كانت في كنيسة سان مارك في نيويورك حينما قرىء كتاب «النبي» لاول مرة هناك في خريف سنة ١٩٢٣ ، وسرعان ما احست بدافع لا يقاوم يهيب بها ان تقتني نسخة من الكتاب ، ثم ان تكتب الى المؤلف معربة عن اعجابها بما وجدته في الكتاب من عمق وسمو واتساع ، فلم تلبث ان تلقت دعوة من جبران لزيارته فكانت فرصة سعيدة لها أن تجيب دعوته .

اما قصة ابتداء عملها سكرتيرة له فترويها في الفصل التاسع من الكتاب ، تحت عنوان «الالفاظ لا تتقيد بحدود الزمان» ، وتتلخص القصة في ان جبران قد دعاها لزيارته مرة ، في خريف عام ١٩٢٥ ـ بعد تعارفهما بسنتين ـ فلما دخلت عليه في محترفه ، رأته جالساً يكتب قصيدة جديدة بالانكليزية عنوانها « الشاعر الاعمى » ، وكان بين اللحظة واللحظة ينهض في مجلسه ويأخذ في قطع الغرفة ذهاباً ومجيئاً وهو يفكر ، غير منتبه الى وجودها معه ، فاغتنمت الفرصة وجلست مكانه على الكرسي ، وحملت قلمه بيدها وقالت له : « انت تنشىء القصيدة وأنا اكتبها » ، فرفض جبران ذلك ، فعادت تقول : « اني شديدة الرغبة في ان اكتب كلماتك ، فاستمر انت في المشي ودعني اكتب ما تمليه علي » . ولكن جبران عاد الى الرفض قائلا : « لا يمكنني ان اشتغل على هذا الشكل مع أي انسان » ، فأجابت : « أوهم نفسك انني لست انساناً ، وانما أنا مجرد آلة صغيرة » . ولم يسع جبران عندئذ الا ان يوافق على رغبتها ، فضحك وضحكت هي ايضاً ، ومضى يملي عليها القصيدة وهي تكتب كلماته . وتقول برباره : « ومنذ ذلك الحين كان العمل يتم دائماً على هذا الوجه » «ص٨٢ و٨٣» .

وهنا تطلعنا برباره على شيء ، لعل القليلين جداً هم الذين كانوا يعرفونه ، وهو أن جبران كان ينشىء كل شيء بالعربية اولا ، ثم يترجمه الى الانجليزية ، وفيما يلي كلامها حرفياً عن الصفحة ٧٣ من الكتاب :

« He completed the poem..., composing in Arabic, as was his inevitable custom, and translating carefully into English »

وحتى كتابه «النبي» ، التحفة الخالدة التي اهداها جبران الى البشرية ، فتلقفها العالم على ظمأ شديد ، واحاطها بكل ضروب التقدير والتقديس ، فكان جبران بواسطته نبياً جديداً من انبياء الشرق في نظر الغرب ، تقول برباره يونغ انه كان قد كتبه بالعربية اولا ، واعاد كتابته بالعربية اكثر من مرة قبل ان يقدّر

للالفاظ الانجليزية ان تكون ثياباً لمعانيه .

وتقول المؤلفة في مقدمة الكتاب إنها لم تكن تقصد ان تكتب حياة جبران ، وانما ارادت أن تقدم للقراء صورة بسيطة واضحة لجبران الرجل الذي عرفته ، بين اصدقائه ، وفي محترفه وهو يرسم بالقلم او الفرشاة. ولقد استطاعت باخلاصها ووفائها ان تبدع في رسم الصورة التي ارادت ، وأن تجعل هذه الصورة الجبرانية التي رسمتها حبيبة الى كل قلب ، قريبة الى كل روح مخلصة تعشق الجمال والحب اللذين كانت تدور عليهما رسالة جبران الانسانية.

وفي جولتها في صفحات الكتاب تقدم لنا برباره فصلا على كل كتاب من مؤلفات جبران الانجليزية ، من «المجنون»، وهو اول كتاب لجبران ظهر باللغة الانجليزية، عام ١٩١٨ ، الى «موت النبي» ، الذي ظل مجرد فكرة في خيال جبران ، حلم بها ولم يسمح له الموت بتحقيقها ، فجاءت برباره يونغ ترسم خطوطها التي كان يريدها جبران ، في الصفحة ١١٩ من كتابها . وهي تحدثنا عن الصدى الذي لقيه كل واحد من هذه الكتب بين الاميركيين، ولكنها اختصت كتاب «النبي» بالحصة الكبرى من عنايتها واعجابها لانه الكتاب الذي حمل الى العالم رسالة جبران على اجمل صورة واكمل وجه . وقد روت لنا عدداً غير قليل من الانطباعات والآثار التي تركها في نفوس الناس. فمن ذلك ما روته في الصفحة ٣٣ من ان فصول «النبي» كانت تمثل كل سنة(١) كرواية دينية في كنيسة سان مارك في نيويورك ، وأن راعيها الدكتور وليم نورمن كاثري كان يؤمن ايماناً عميقاً بجبران كنبي جديد .

وفي الفصل الثاني من الكتاب تحت عنوان « ثائر خطر ومسمم للشبيبة » ، تروي المؤلفة حكايات اخرى عن اعجاب الاميركيين « بالنبي » ، منها أن امرأة متألمة قد تلقت نصيحة من احد اصدقائها بان تقرأ هذا الكتاب ، فلما اطلعت عليه قالت : « هذا هو الكتاب الذي اريده ... انه ليس كتاباً ، ولكنه خبز وخمر للمتعبين امثالي » .

ومنها ان احد المشتغلين بالابحاث العلمية قد قال بعد اطلاعه على هذا الكتاب : « لقد علمني هذا الكتاب حقيقة وهي ان العلم بدون نعمة الحب والجمال شيء ميت » . وكذلك قال احد رجال القانون مرة : « لو أنني قرأت فصل الجريمة والعقاب قبل عشرين سنة ، لكنت اكثر صلاحاً وسعادة ، وكنت في كل مرافعاتي اقوى وابلغ حجة » .

ثم تعقب على ذلك بقولها : « وهكذا كان « النبي » محققاً لرغبات كل انسان ، فالفيلسوف يعتبره فلسفة ، والشاعر شعراً، ويرى فيه الشاب صورة لكل ما يحسه في قلبه ، والشيخ يجد فيه الكنز المجهول الذي ظل يبحث عنه طوال عمره فلم يجده الا في خريف العمر » . «ص ١٧»

جبران خليل جبران

ولا تلبث المؤلفة ان تعود الى «النبي» في الفصل السادس من الكتاب ، تحت عنوان «الحقيقة هنا» ، فتسرد قصة تأليف هذا الكتاب «الذي اصبح في اعتقاد الالوف من البشر كتاباً خالداً لا يموت» «ص٥٣» فتذكر ان جبران قد وضع الفصل الاول منه وهو على مقاعد الدراسة في كلية الحكمة في بيروت ، ثم تركه لانه رآه لا يزال «ثمرة فجة» ، ولكن نبيه « المصطفى » لم يفارق خياله منذ ذلك الحين. ثم رافقته فكرة الكتاب الى فرنسا، ثم الى بوسطن ثم الى نيويورك ، حيث قدر أخيراً «لنبي» جبران ان يولد بالانجليزية ، بعد ان مهد لظهوره بكتابين آخرين هما « المجنون » و « السابق » . وفي هذا الفصل تروي المؤلفة على السنة الكثيرين حكايات اهتدائهم الى كتاب «النبي» والانطباعات التي تركها في نفس كل منهم . وهي انطباعات تدل على إعجاب مطلق بجبران ، وبالروح التي قدم بها جبران كتابه الى العالم .

ونحن لا نستغرب هذه الحكايات التي ترويها برباره يونغ في كتابها ، فالذين قرأوا كتاب « النبي » يعرفون ما في فصوله من نبل الرسالة الروحية ، وجمال الاحاسيس الانسانية . واذا عرفنا ان هذا الكتاب قد ترجم الى نحو خمسين من اللغات العالمية ، واعيد طبعه باللغة الانجليزية وحدها عشرات المرات ،

(١) بذل مخائيل نعيمة كل براعته في فصل « حصة في السماء وحصص في الأرض » للتقليل من أهمية الحادث، وتحقير راعي الكنيسة واعماله، وللايهام بان التمثيل قد وقع مرة واحدة في هذه الكنيسة (انظر ص ٢١٥-٢١٨ من كتابه عن جبران)

ادركنا مدى التقدير العالمي الذي يتمتع به .

الا ان هناك ناحية اخرى تهمنا كثيراً ، لا سيما وقد قرأنا من قبل ما كتبه مخائيل نعيمه عن جبران ، والصورة الشهوانية التي صوره بها في كتابه ، وهي صورة حاولنا كثيراً وعبثاً ان نجد لها ما يؤيدها ، سواء في ما كتبه اصدقاء جبران الآخرون – ولا سيما عبد المسيح حداد ، ووليم كاتسفليس والريحاني وفيلكس فارس – او في ما كتبته بربارة يونغ ، مما جعلنا نجد انفسنا مضطرين الى الشك . والشك الكثير في صدقها . والصورة التي ترسمها لنا بربارة يونغ من جبران الانسان – وهي من الصق الناس به ، واجدرهم بمعرفة خفايا نفسه – اكثر نبلا وجمالا مما رأيناه لدى نعيمه . ففي الفصل الرابع عشر من كتابها ، تحت عنوان «أنا نفسي مشكلة» ، تتحدث المؤلفة عن حياة جبران الخاصة ، وشعوره الجنسي ، ولكنها تؤكد انه لم يكن من الممكن ان يعرف احد شيئاً عن حياته العاطفية «ص ١٣٠»(١) . أما رأيه في الحب فقد اوردت المؤلفة ما ذكره في احد مجالسه في المحترف لسيدة كانت تسأله عن الحب ، وعن السبب في انصرافه عن الزواج ، فقال : « إن اعظم المخلوقات احساساً بالشعور الجنسي هي طبقة الخلاقين ، واعني بهم الشعراء ، والنحاتين ، والرسامين ، والموسيقيين ... والشعور الجنسي لديهم هو منحة جميلة سامية ، انه شعور دائماً ، وخجول دائماً » « ص ١٢٩ » .

وقد ذكرت المؤلفة « أن نساء كثيرات قد احببنه بحرارة وتقديس ، حباً ناجماً عن شعور عميق بالعرفان والاجلال ، وخارجاً عن حدود الذات والانانية ، وان نساء غيرهن قد احببنه حباً ذاتياً » «ص ١٢٨ و ١٢٩» ولكنها لم تستطع ان تذكر ان جبران قد بادل واحدة منهن عاطفة الحب الجنسي في يوم من الايام ، فقد كان جبران عميقاً في أسراره ، ومنصرفاً بكليته الى عمله الخلاق ، والى رسالته الروحية التي ينشرها في «كتبه السوداء الصغيرة» (٢)

واشياء اخرى كثيرة نجدها في كتاب بربارة يونغ بصورة تختلف اختلافاً كلياً عما في كتاب نعيمه ، فقد اوردها نعيمه في صورة «تحط» من إخلاص جبران ، بينما اوردتها بربارة يونغ بصورة عكسها تماماً . ونحن نكتفي ههنا بشيء من الفصل الذي كتبه نعيمه بعنوان « نبأ كاذب » ، والذي تعمد فيه ان يظهر جبران – باعتراف منه – بمظهر الرجل الذي عاش وهو يخدع الناس بظواهره عن حقيقة نفسه . وقد فسر قوله : « I am a false alarm » بان معناه : « أنا نبأ كاذب » . والعبارة نفسها مذكورة في كتاب بربارة يونغ ، ولكنها اكثر الفاظاً ، وبمعنى آخر بعيد كل البعد عن تفسير نعيمه الذي أخذ نصف العبارة واهمل نصفها الاهم الذي يؤدي المعنى الصحيح لما يريده جبران . وهذه هي العبارة كاملة :

« I am a false alarm. I do not ring as true as I would »

ولفظة (alarm) ههنا ليس معناها «النبأ» ولكن المقصود بها «المنبه او الساعة الدقاقة» ، كما ان ترجمة (false) «بكاذب» في هذه العبارة نفسها ، فيه بعد عن المعنى المقصود ، وكان الاصوب والاقرب الى معنى جبران ترجمة (false alarm) « بالساعة غير الدقيقة او غير المضبوطة » ، وظاهر ان معنى العبارة كلها هو ان جبران يتألم كل الالم لانه لم يتوصل الى تحقيق الكمال الانساني في نفسه كما يريد . وذلك ايضاً ما تقوله بربارة يونغ في التعليق على هذه العبارة ، في الصفحة «١٢» وهو :

« He felt that he was failing in some measure to do all that was divinely expected of him ».

ويلاحظ القارىء ان التحريف في سرد العبارة فيه اساءة متعمدة الى جبران ، إذ انه يشوه جمال المعنى الذي اراده ، وجمال الروح التي اوحت به . وهذا يشبه تماماً الاكتفاء من الآية القرآنية «ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» بنصفها الاول «ولا تقربوا الصلاة» وإهمال النصف الثاني وهو المقصود بالعبارة .

***

بعد هذه التعليقات السريعة ، نقول بكل اخلاص إن هذا الكتاب ضروري جداً لكل من يريد ان يعرف جبران على حقيقته ، ويعايشه في محترفه وحياته الخاصة ، ويعرف اخلاقه ورسالته الروحية والانسانية ، وآراءه في الحياة والفن والادب ، وتعلقه المخلص بوطنه وقومه وتاريخ امته «انظر الفصل الثامن والفصل الخامس عشر من الكتاب» ، ولكل من يريد ان يطلع على أثره في الغرب ، ويفهم الروح التي أملت سائر مؤلفاته الانجليزية ، وكيفية ولادتها ، واستقبال الناس لها . فكل هذا مصور بكثير من الجمال والصدق والاخلاص في صفحات هذا الكتاب الاسود اللطيف الذي تقدمه بربارة يونغ عن جبران الخالد « هذا الرجل اللبناني » .

عمان — عيسى الناعوري

(١) ومثل هذا ما قاله الاستاذ عبد المسيح حداد – زميل جبران ورفيقه – في حديث طويل نشر في مجلة « العصبة » وجريدة « السائح » .

(٢) كل مؤلفات جبران الانجليزية كانت تصدر في غلافات سوداء ، ولذلك كان يدعوها « بالكتب السوداء الصغيرة »

انتحار

بقلم محمد كمال جمعة

عضو معهد علم النفس بالقاهرة

☆

قلما نجد في أدبنا المعاصر قصصا حية بمعنى أنها تصور لنا الواقع بتفصيل دقيق ينقل القارىء الى عالم مليء بالانفعالات التي تفرضها علينا الحياة غير مبالية برغباتنا واتجاهاتنا ولهذا النوع من الأدب رسالة هامة لأنه يخرج القارىء من حالته النفسية الحاضرة الى حالة نفسية اخرى ويحدث ذلك نوعا من الراحة لقضائه على السأم والركود النفسي. ونجد في قصة إنتحار صراعا بين مراحل من النشاط الارادي : مرحلة السلبية التامة التي تحاول ان تطغى على كل دوافع الحياة ومن بينهما غريزة البقاء ومرحلة الايجابية التامة التي تحاول ان تبدع وتخلق ونجد في هذه المرحلة قوة الابتكار التلقائي التي تتمثل في الميول الفنية عموما وتعبر هذه القصة على « نبرات نفسية » دقيقة لا يلتفت اليها سواء في موقف الكتابة او في موقف المطالعة إلا من اختبر نفسه في صراع نفسي عنيف عرّضه اليه مجتمع مضطرب او نفس وثابة او جسم حساس ولا شك ان القارىء مهما كانت ظروفه سيجد في هذه القصة معرضا للكفاح الداخلي الذي تعانيه نفوس الشباب العربي فنحن في حاجة ماسة في هذه الظروف العصيبة التي يجتازها كامة مفككة الى غذاء روحي يتمثل في الفن فلعل هذا الغذاء وحده قادر على ايقاف الميول الهدامة التي تحاول ان تقضي على ملكات الفرد وتحاول ان تظهر في صورة فوضى بدلا من ان تتجه الى البناء الخالد. وليعلم القارىء ان هذه القصة وليدة صراع نفسي عنيف كونته عوامل خفية تعددت منابعها وتجمعت في نفس واحدة تنادي بالحياة السليمة الراقية التي تطمع في الوصول الى الاستقرار المنتج لتتخلص من التردد ولتحقق الغاية التي ينشدها كل انسان وهي الرضا عن النفس .

ابو مدين الشافعي

⁂

خرج علي قاصداً الى النيل لا يلوي على شيء آخر . لقد استقر رأيه وعزم عزماً أكيداً على الخلاص من حياته تلك . لم يعد يتحمل اكثر مما تحمل في ذلك البيت الذي قدر له ان يعيش فيه . إنه لا يكاد يمر يوم دون ان تثير فيه زوجة ابيه الثائرة عليه فهي تعرض به دائماً وبخيبته وهي من مدة شهر تقريباً ومن ساعة ان رسب في امتحان البكالوريا وهي تلح عليه ان « يذهب ليموت » على حد تعبيرها. وهو يعجب العجب كله كيف رسب وهو الذي كان يكدح ويكد ليل نهار لكي يجتاز هذا الامتحان على الاقل لان هذا الامتحان سيمكنه من الاستقلال بشخصيته وبذاته في بيت مستقل بل هو يعجب كيف



عرف الرسوب الان على حين لم يكن يعرفه قبل السنة الثالثة الثانوية أي قبل ان يتزوج ابوه ثانية ويرتبط بتلك الزيجة الجديدة التي اورثته هذا العناء !

واذا فقد خرج علي وقد صمم على الانتحار ولم لا ينتحر؟! اليس الانتحار خلاصاً من حياته البائسة تلك وهو الذي لم يعد يستطيع ان يتحمل بعد الان حلقة جديدة من حلقات كيد زوجة ابيه وتدبيرها المقيت المميت .

وجعل يسرع خطاه ويردد في فكره وفي سمعه الا خلاص إلا بالانتحار وتعمد ان يستغرق من هذه الفكرة استغراقاً تاماً يمنع صوت العقل من ان يرده عنها فهو يعلم ان تعلق النفس بالحياة

تعلق قوي عنيف وان هـذا التعلق خليق اذا هو سمح لنفسه باظهـاره خليق ان يفسد عليه تدبيره أو خليق بان يحمله على تأجيل تنفيذه على اقل تقدير .

وحين وصل الى شاطىء الكورنيش ولمح ماء النيل الجاري اخذ يسرع اكثر من ذي قبل حتى اذا وصـل الى النهر نفسه وتهيأ لاتمام المهمة العظيمة التي جاء من اجلها تلفت حواليه فوجد بعضاً من فقراء الناس وبسطائهم جالسين على السور غير بعيد . رآهم غارقين في بحر من المرح والضحك فقدر ان هذا المكان غير صالح اذ لو رآه هؤلاء النفر لسارع بعضهم الى انقـاذه في وقت يكون فيه هذا الانقـاذ نكبة اكبر وقعاً في نفسه من الانتحار ذاته ولعله في قرارة نفسه خشي ايضاً ان يفسد على هؤلاء البسطاء تلك اللحظات السعيدة التي لا بد انهم قد انتزعوها من شقائهم إنتزاعا والتي لا شك في انها لا تتوفر في حياتهم كثيراً .

واذاً فقـد قرر علي ان يذرع شارع الكورنيش عرضاً حتى يصل الى بقعة خالية من الناس لا بناء فيها ولا احد فيستطيع ان ينفذ بغيته . سار وعزمه لم يضعف او هكذا حاول ان يوحي الى نفسه ولم يعد يعنيه منظر العمارات الضخمة ولا السيـارات الانيقة التي تحمل الناس ذهابا وإيابا . صحيح انه قد اهتز بعض الاهتزاز عندما شاهد صبية فاتنة وهي متعلقة بذراع حبيبها وهما سائران في انسجام وتوافق عجيب حتى لكأنهما نسيـا فقرهما البادي ونسيا نظرات الناس الفضوليين من حولهما نسيـا حتى نظرته هو العابرة !

سار علي في طريقه وقدر أنه في نهاية الشارع وحين ينتهي هذا السيل المتلاحق من العمائر الضخمة سيجد البقعة الهادئة التي ينشدها وأخيراً وصل الى اطرافها فعلا وما كاد يتنهد تنهد الارتياح حتى لمح رساماً اصطحب معه لوح الرسم وإنهمك – كما يبدو – في رسم لوحته فاعتراه ضيق شديد حتى لقـد بدا له ان يرجع عن هـذا المكان ايضاً وان يلتمس الموت في مكان آخر او في صورة اخرى ولكنه اقنع نفسه في النهاية بان هذا الرسام منهمك في الرسم الى حد انه لن يلتفت اليه في غالب الامر وهكذا سار علي مصمما على تجاهل هذا الرسام ولكنه ما كاد يحـاذيه حتى لعبت المصادفة دورهـا ! ذلك ان الرسام كان يتراجع دون ان يلتفت الى شيء آخر غير الصورة ! ولهذا لم يكن غريباً ان يصطدم في تلك اللحظة بعلي اصطـداماً عنيفاً والتفت الرسام في أسى صادق الى علي قائلا :

« لا تؤاخذني يا استاذ ، ارجوك ان تعذرني . طبعاً انا لم اقصد شيئاً وارجوك ان تقـدر كم تعبت في هذه الصورة حتى اصبحت بهذا الشكل » . ومن غير ان ينتظر ليسمع رداً من علي جذبه من يده واخذه معه في تراجعه ذاك الى الوراء صـائحاً صيحة اقرب الى صياح الاطفـال البريء « الا ترى ؟ اليست مدهشة . قل لي رأيك بصراحة » .

وهنـا وجد علي نفسه مضطراً ان يلقي نظرة على الصورة ليدلي برأي عابر فيها ولكنه ما كاد ينظر الى الصورة حتى احس روعتها باحساسه الفني المشهود له وحتى اخذ يتأملها تأمل الناقد المستوعب فرأى منظراً ينبض حيوية وحياة . منظر النهر الخالد الجاري . منظر الحبيبين المتعانقين ومياه النيل تشهد على حبهما وتـكاد تصيح مباركة إياه ، والجزيرة الخضراء تبدو من بعيـد وفيها اشجار النخيل الباسقة تكاد تطـاول السماء كبراً وخيلاء ، والنسيم العليل يعبث برءوسها كما يعبث بشعور العذارى وهن في نشوة بالغة . وسمع علي نفسه يصيح « شيء جميل جداً متسق جداً ممتع جداً . آه لو عمقت هذا اللون الاخضر قليلا لصارت فتنة كاملة ! » فيصيح الرسام « فعلا انا كنت أنوي ان اعمقه انت يا استاذ احساسك الفني عظيم انت شجعتني وأنا اعتز بتشجيعك اتعرف كم تعبت في هذه اللوحة . لقد مضى علي حوالي شهر رسمتها فيه حوالي عشر مرات وكل مرة لا ارضى عنها وأراها في هذه المرة مدهشة لا اخفي عليك انا في غاية السرور انا في غاية السرور »

وعندئذ القى علي نظرة أسفه الى تلك البقعة التي اصبح عليه الان ان يغادرها ورجع وهو يهز رأسه ولا زالت ترن في اذنيه صيحة الرسام . « لقد مضى علي حوالي شهر رسمتها فيه حوالي عشر مرات وكل مرة لا ارضى عنها وأراها في هذه المرة مدهشة » .

القاهرة

محمد كمال جمعه

تمت اللعبة

تمت اللعبةُ ، لا جدوى
وها نحن انتهينا !
لا تقولي : « معك الحب »
متى كان .. ! وأينا ؟
لا تقولي : « حظنا شاء ».وداعاً ! فالينا
ينظر «البيدق» في خوفٍ و«صمتي» و«انتهينا»
دمية ألقى بها طفلٌ ، بعيداً ، عن يدينا
قدر ـ كان وراء الغيب ، يلهو بانطلاقي
آه لو حطمت مصباح الهوى ، قبل احتراقي
وافترقنا ، قبل ان يخبو اللظى ، قبل العناق
ليت ـ لا كان التلاقي !
اي جدوى من حياتي ؟
والجماد البارد المغمور لم يحفل بذاتي !
اي جدوى من حياتي ؟
و « انتهينا » دفنت اشلاءها في اغنياتي
وغداً يفتتح اللعبةَ عشاق ـ سوانا
فيرون البيدق الخائف ـ لا كان هوانا

***

عبثاً ! تبكين ، يا بلهاء ، ما ليس لدينا ...
تمت اللعبة ، لا جدوى
وها نحن انتهينا !

بغداد عبد الوهاب البياتي

اسكندر شلفون الاديب الشاعر والعالم الموسيقي

بقلم منير الحسامي

مكانته العلمية والفنية

قال لي العالم الموسيقي المرحوم وديع صبرا : كان اسكندر شلفون دائرة معارف في الموسيقى بمعلوماته الغزيرة ، وثقافته الوفيرة . وكان اكبر عالم متضلع بالاوزان وباسرار المقامات العربية بكاملها . واعظم مؤرخ للموسيقى العربية . واول من كتب في الناحية العلمية الموسيقية . وبحاثة كبيراً . لانه كان ذا ثقافة تامة في اللغة العربية ، وقد الف فيها كتباً نفيسة . كما كان ذا ثقافة واسعة في اللغتين الفرنسية والانكليزية . وكان عبقرياً في الموسيقى والثقافة الموسيقية العامة . يلحن ويؤلف ويحلل ويناقش وينتقد بحذق وتفوق .

كان اسكندر شلفون ذا مواهب أدبية وفنية نادرة . وقد كان من خصب ثقافته ، وتعدد مواهبه . وتوقد ذهنه . واشراق ذكائه . انه كان كاتباً ، مؤلفاً ، بحاثة ، شاعراً ، مترجماً ، ملحناً ، موسيقياً . بل كان فذاً في مواهبه ، ذا دماغ يشع نبوغا ، ويفيض انتاجاً راقياً . حتى ان مؤلفاته والحانه واغانيه ، لم تكن من السهولة والسلاسة بحيث يستسيغها الجمهور وعامة الشعب . لانها كانت مؤلفة بدقة علمية وباسلوب فني .

وبلغ من مكانته العلمية الموسيقية السامية ان انتخبه النادي الموسيقي الشرقي ، بمصر « معهد فؤاد الاول للموسيقى العربية » اليوم عضواً في اللجنة الفنية عام ١٩١٤ . فاستاذاً اولا . فعضواً في مجلس الادارة لعامي ١٩١٤و ١٩١٥ ، وبقي عضواً حتى سفره الى بيروت عام ١٩٣٢ . كما كان المدير الفني لشركة اسطوانات « كولومبيا » التي سجل في اسطواناتها وفي سواها من الشركات طائفة كبيرة من الحانه على الكمان باسم « اسكندر الكمنجاتي » وسواه من الاسماء المستعارة كما لحن والف اغاني والحاناً عديدة باسماء مستعارة ايضاً .

وابتكر اسلوباً سهلا لتسجيل العلامات الموسيقية ، النوت ، بالاحرف الهجائية العربية . يساعد التلميذ على درس علم « النوت » ببساطة وسرعة بلا معلم ، تمكنانه من اتقانه نسبياً بمدة وجيزة . اذا كان ملماً « بالنوت » .

وله نظرية في تقسيم اصوات السلم الموسيقي العربي بطريقة رياضية علمية .

ولقد تعمق في دراسة عدد كبير من الكتب العربية والاجنبية التي تبحث في الموسيقى العربية في جميع العصور . حيث اطلع على كل شاردة وواردة في قواعد الفن الموسيقي ومقاماته واوزانه وسلمه واسراره ، وحذق فيها واصبح بحاثة علامة يرجع اليه في العلوم الموسيقية والنظريات الفنية بما لا يقبل نقصاً او نقاشا كما انه قد جمع كثيراً مما كتبه المستشرقون وسواهم من البحوث الموسيقية العربية والشرقية . ودرس الموسيقى العربية وقواعدها .

وفي عام ١٩٣٢ ، انعقد المؤتمر الموسيقي العربي ، بمصر ، وقد ضم نخبة من اساطين الموسيقى في العالم ، الذين يمارسون الموسيقى العربية ، او يعنون بها ، من شرقيين وغربيين . وليس من شك في ان معظم الموسيقيين العرب في ذلك المؤتمر وسواه قد استقوا معلوماتهم الفنية من مؤلفات اسكندر شلفون وبحوثه الممتعة في مجلته « روضة البلابل » فكانت لهم المورد العذب والمصدر الهام ينهلون منه ما يشاؤون لاتمام بحوثهم الموسيقية وتدعيم دراساتهم الفنية ، وتقوية نظرياتهم العلمية في الموسيقى العربية .

لم يكن اسكندر شلفون في المؤتمر يومئذ ، لانه كان قد نزح عن مصر الى بيروت ، والا لكان له المركز الرفيع . ولادهش علماء الموسيقى بنبوغه ، وبسعة اطلاعه ، وغزارة معلوماته . على انه حسبه فخراً انه كان المرجع الوحيد حتى وفاته ، واحـد

المراجع الوثيقة الى اليوم .

اما اسلوبه الخاص في تحليل الانغام الشرقية فهو جديد وفسيح وحده ، لم يتوصل الموسيقيون الى مثله ، اذ قد امعن في درس النغمات وتحليلها ، وادلى باراء خاصة ، كما صور طابعها وشرح دواوينها ، وذلك بدقة علمية فنية صحيحة . وطبيعي ان يكون جميع الموسيقيين العرب في « المؤتمر الموسيقي العربي » قد اقتبسوا بعضاً من اسلوبه الخاص في تحليل الانغام .

مجلة روضة البلابل

في سنة ١٩١٩ اسس مدرسة « روضة البلابل » الموسيقية التي ابدلها باسم « المعهد الموسيقي المصري » فيما بعد.

وفي عام ١٩٢٠ انشأ مجلة « روضة البلابل » الموسيقية ، وكانت الوحيدة من نوعها . وقد صدرت نحو ثماني سنوات ، خدم بها الموسيقى علماً وفناً وتعليماً وتأليفاً وتلحيناً خدمات جليلة . فحرص على اظهار جمال الموسيقى العربية وحسناتها وغناها وعظمتها . وكان ينشر بقلمه في كل عدد طائفة من المقالات الفنية والبحوث العلمية . تحوي قواعد الموسيقى ومقاماتها واوزانها وتراكيبها وصناعتها ، واساليبها وفنونها واسرارها ، ومقالات في تاريخ الموسيقى وتاريخ الآلات الموسيقية عند الامم، ومقالات أدبية واجتماعية وانتقادية، وقطعاً موسيقية « بالنوت » من تسجيله . وكان يوقع بحوثه وقصائده والحانه ، واغانيه بتواقيع مستعارة احياناً ، منها « كردانس » وهو اسم اسكندر ، مع تقديم وتأخير في حروفه . وكان يضطلع وحده بتحرير مجلته غالباً ، ببراعة ونضج ، وغزارة في المعارف ، وقد تضمنت مجلته معظم انتاجه . وكان جريئاً في ارائه ، نزيهاً في نقده ، عادلا في حكمه ، مخلصاً في مناقشته، حراً في افكاره يقدر نوابغ الموسيقيين . لا يجامل ولا يتسامح بالحق، مما اوجد له كثيرين من الخصوم الذين عمدوا يكيدون له ولمجلته ويتحاملون عليهما . ويحاولون الحط من قدرها على صفحات الجرائد فصمد لهم وناقشهم . وفند اراءهم . وفضح جهلهم واظهر عجزهم ، وافحمهم ، ولم يقتصر في ردوده ومناقشاته على مجلته فقط . بل تعدتها الى الصحف ايضاً فكان يدلي بها بوجهة نظره ، ويرد الهجمات المسددة اليه بعنف وحماسة وعلم وافر على ان الحسد الذي عاث في قلوب هؤلاء الخصوم الموسيقيين لهذا المنافس الخطر جعلهم يحاربونه بضع سنوات ولكنه افهمهم بانهم آفة على الموسيقى العربية ، وغمس عليهم مؤامراتهم وحزازتهم . وعاب عليهم غرورهم وادعاءهم . وقد كان يخرج دائماً من نضاله ظافراً .

وكان ينشر معظم مؤلفاته العلمية والادبية والموسيقية في مجلته متسلسلة . ثم يجمعها في كتب مستقلة . ولقد نشر في مجلته فصولا من « كتاب الموسيقى » للفارابي .

مؤلفاته

ترجم عن الفرنسية في اول نشأته بضع روايات تمثيلية منها رواية «معبد النيران» كان ينظم شعر اغانيه ويلحنها شأن قدماء الموسيقيين اليونانيين وبعض موسيقيي النهضة العربية الحديثة . كالشيخ احمد ابي خليل القباني. وكامل الخلعي والشيخ درويش الحريري ، والشيخ سيد درويش .

الف عدة كتب في الثقافة الموسيقية منها «الموسيقى» «العود» العلامات « الموسيقية او النوتة » ، وهو يحتوي على معلومات موسيقية اهمها تاريخ المدرج الموسيقي Portée Musicale واسماء مفاتيحه من مفتاح « صول » Clef de Sol ومفتاح « فا » Clef de Fa ومفتاح «دو» Clef de Do .

— مصدر اسماء العلامات الموسيقية السبع —

ترجمة الانشودة من اللاتينية الى العربية

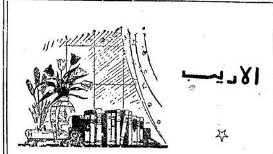
(انشودة مار يوحنا)

Hymne de Saint Jean

ايها القديس يوحنا	Ut (1) Ut que-ant laxis : اون
حل اثم الشفاه	Re (2) Re-So-na-re fibris : ري
لكيما استطيع	Mi (3) mi-rages-to-rum, : مي
عبيرك ان	Fa (4) Fa-mu-litu-o-rum : فا
يدقوا «او ان يلحنوا»	Sol(5) Sol-vepul-lu-ti : صول
باوتار واسعة	La (6) La-bi-ire-a tum : لا
من اعمالك الباهرة	Si (7) Sane-te-yo-an-nes. : سي

ان مصدر العلامات الموسيقية السبع هي اول مقطع من اول كل سطر من الانشودة المذكورة اعلاه.وقد استبدلت لفظة « اوت Ut » اي المقطع الاول في السطر الاول بلفظة « دو Do » ولفظة «قديس Sane-ta » المقطع الاول في السطر السابع بلفظة « سي Si » تسهيلا للنطق .

والذي انشأ هذه الانشودة وكون منها العلامات الموسيقية العصرية هو الراهب « غيدو داريتزو » ولد سنة ٩٩٥ ومات سنة ١٠٥٠ مسيحية .



الاديب

☆

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادى :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : ١٥٠ قرشا مصريا او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات في الارجنتين ١٠٠ ريال

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيها مصريا او استرلينيا او ٦٠ دولار كحد اعلى



المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

تليفون { الادارة : ٤٧ - ٩٢ ، المنزل : ٣٧ - ٤٨ }

Tél. { Direct. : 92 - 47 ; Dcle. : 48 - 37 }

☆

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **البير أديب**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الأديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

وترجم عن الفرنسية كتاب «وصف مصر» تأليف «فلوتو» ونشره متسلسلا في مجلته . وهو كتاب الف في عهد الاحتلال الفرنسي لمصر باسم نابليون ، وهو مؤلف من واحد وعشرين جزءاً ، ترجم اسكندر شلفون ما يختص بتاريخ الآلات الموسيقية الشرقية ، اي ثلثي الجزء الثالث عشر والجزء الرابع عشر بكامله واثبت الاصل الفرنسي ازاء الترجمة العربية ، مما يبرهن على تضلعه في الفرنسية ، وثقته بنفسه ، وجرأته في عمله .

وترجم عن الفرنسية القسم الاول في الموسيقى العربية من « دائرة المعارف الموسيقية وقاموس المعهد » تأليف « جول رووانت » ونشره متسلسلا في مجلته ، وهو يشتمل على تاريخ الموسيقى العربية وقواعدها وفنونها وتطورها ، وتراجم اعلامها في العصور العربية الاسلامية الاولى . وقد وجد فيها كثيراً من الهفوات والاغلاط فذيّلها في الحاشية اذ عالجها بالرد والمناقشة والبحث والتعليق والتنقيح باسهاب استوعب ضعفي الاصل الفرنسي ويضاهيه في البراعة والاستقراء ، بل يتفوق عليه في دقة البحث وصدق الاستكشاف وصحة المصادر وعمق الفكرة مما يدل على ثقافة غزيرة ، وعلم ناضج ، واطلاع وافر ، وعلى نبوغ فذ في العلوم الموسيقية العربية التي يعد فيها اعظم عالم في البلاد العربية وقد بعث بهذه الترجمة المنقحة الى «المعهد العالمي الفرنسي للتعليم الموسيقي» في باريس ففاز بموافقة العضو «البير لافنياك» واعجابه.

والف اوبرا «السبايا» شعراً ولحناً . ولقد صاغ الحانها وجميع الحانه واغانيه باسلوب علمي فني اذ كان حريصاً على ان يكون الشعر والموسيقى راقيين لا يعتورها سخف او وهن . ولكن «السبايا» لم تخرج على المسرح .

وساهم مع البارون « ده ارلنغييه » في ترجمة القسم الموسيقي من كتاب للفارابي .

وفي عام ١٩٢٣ رفع الى وزير المعارف بمصر تقريراً في الموسيقى المصرية ضمنه اراءه في نظام التعليم الموسيقي في مدارس الحكومة . فاجابه الوزير برسالة شكر وتقدير آملا ان ينفذ ما فيه في فرصة مناسبة .

وفي سنة ١٩٢٤ شرعت الحكومة بتأليف عدة لجان تعنى في الفنون الجميلة بما فيها الموسيقى في المدارس . فطرب اسكندر شلفون وعد ذلك فوزاً له ، لان الحكومة اعتبرت تقريره وعمدت الى تنفيذ بعض آرائه .

ومن امتع مقالاته الادبية «يا ليل يا عين» عبر فيها عما يعني

المغني في تكرار لياليه ، اذ استرسل في مناجاة الليل ، وحلل ذلك وصوّره باسلوب انيق ، وعبارة رشيقة ، وبيان ناصع ، وفن اخاذ فياض بالشعور العميق ، زاخر بالعواطف المضطربة ، حافل بالافكار الفلسفية ، مفعم بالآراء اللامعة ، حتى غدا تحفة ادبية فنية رائعة ينافس فيه جبران خليل جبران في مقاله البديع « ايها الليل » .

ومن انفس بحوثه في العلوم الموسيقية « طونوم » مسافات السلم الموسيقي الشرقي وبيان ارباعها ، « تقسيم ديوان السلم الموسيقي الطبيعي الشرقي » « الموازين الموسيقية » الافرنج وديوانهم الموسيقي الملفق .

ولقد خلف بعد وفاته مخطوطات قيمة عديدة في الثقافة الموسيقية العامة.وهي الاغاني والموسيقى منها «قاموس الموسيقى» «ومذكراته اليومية» ، وديوان شارل القرم الذي ترجمه شعراً ولحنه ، تبعثرت كلها واختفت. لان ثمة من يؤذيه نشرها وهكذا اضطهد هذا الرجل الموهوب في حياته وبعد مماته .

اقواله في الموسيقى

وكان لشغفه بالموسيقى يشيد بذكرها ويحرص على نشرها في جميع كتاباته . ومن اجمل اقواله :

اذا كنت تشعر بمرض في اخلاقك ، فتداو بالموسيقى .

« الموسيقى للروح كالنور للنظر . هذا دليل العين الى مناها . وتلك دليل الروح الى هناها » .

« ان في الموسيقى بلاغة وفصاحة وبيانا تبلغ في بعض الاحيان ما لا تبلغه لغات الكلام » .

اغانيه وموسيقاه

طفق اسكندر شلفون يناضل في سبيل رقي الموسيقى العربية وتهذيبها . وكان يجيد العزف على العود والقانون والكمان والبيانو . كما نبغ في علم « النوت » وقد الف فيه كتابا . فالف ولحن كثيراً من الموسيقى والاغاني سجلها جميعها « بالنوت » بنفسه وقد حرص على تلحين عدد كبير من الاناشيد الوطنية الحماسية والاغاني القومية والاجتماعية والوصفية التي تستثير الهمم وتحث على الشجاعة وتحض على الفضيلة وتبث في النفوس روح البهجة والمرح . وقد اكثر فيها من التغني بجمال الطبيعة وعصافيرها وبلابلها كما حارب فيها الاغاني الساقطة والطقاطيق المبتذلة والموسيقى التافهة . وقاوم اغاني الوله والدموع والذل والميوعة . وحث بمقالاته واغانيه على تلقي الموسيقى الراقية وتذوقها .. ولكن النقد القاسي كان ينصب عليه والطعن الاليم كان ينهال حواليه والتهكم اللاذع كان يرسل اليه لجهاده في سبيل الفن وتعزيزه . فكان يتلقى كل تلك النبال بصدر رحب وخلق كريم غير آبه لثرثرة المغرورين وغير حافل بحقد الحاسدين . بل كان يرد كيدهم الى نحرهم بثقة واطمئنان ومهارة جعلتهم يطأطئون الرؤوس خجلا وفشلا ويخرج من الميدان ظافراً شأنه دائماً .

هذا الى انه كان يفوز في جميع المباريات الموسيقية التي يساهم فيها . ومن الحانه الفائزة نشيد « املكي يا مصر » نشيد ليحيى الملك « مارش الملك فؤاد» توشيح «ايها الساقي اليك المشتكى» .

وهذه اسماء بعض موشحاته وادواره وقصائده :

ايها الساقي اليك المشتكى	مقام نهاوند
كل بدر لاح	مقام نوأثر
لي حبيب دأبه فرط الدلال	مقام حجاز كاركرد
رايح لين ياللي اشتكيت للقمر	مقام زهرة الندى
امانا ايها القمر المطل	مقام بياتي

وهذه اسماء بعض تغاريده ومنولوجاته واناشيده

الليلة اقابل محبوبي	مقام اوج
يا زهرة الازهار	مقام كردى العرب
يا عيون حبيبي العسلية	مقام بياتي
الورد يعطف عالياسمين	مقام جهار كاه
الحظ في يد القدر	مقام حجاز كاركرد
طلع البدر علينا	مقام حجاز «
نشيد مصر الاعظم	مقام جهار كاه
املكي يا مصر	مقام راست

وهذه اسماء بعض قطعه الموسيقية وبشارفه وسماعياته :

حب الوطن	مقام بياتي
صوت من وراء الاجبال	مقام راست
عظمة الاهرام	مقام نهاوند

بشرف عجم ـ بشرف جهار كاه ـ بشرف نكريز ـ بشرف صبا ـ بشرف حجاز كار ـ سماعي بياتي ـ سماعي سوزناك ـ سماعي راست ـ سماعي حجاز كار ـ سماعي عجم ـ فضلا عن مارشاته وتقاسيمه واستهلالاته ودواليبه وتهاليله وقطعه الموسيقية الوصفية .

حياته

ابصر اسكندر شلفون النور في القاهرة عام ١٨٨٢ ولقد نشأ من ابوين موسيقيين هاويين . فكان ابوه بطرس شلفون وهو لبناني الاصل ومن كبار موظفي وزارة المالية المصرية يجيد العزف على العود . وامه لطيفة نعمة تحسن التوقيع على القانون والعود . وقد ظهرت بوادر مواهبه الموسيقية وهو في الخامسة من عمره ، فشرع ابوه يعلمه القواعد والانغام والبشارف والموشحات والاغاني . ولكنه لم يعلمه العزف على آلة ما . لانه كان قد شعر بميل لممارسة العزف على العود والقانون من تلقاء نفسه . على ان والده قد علم اخاه فريد العزف على العود .

ثم تلقن مبادىء « الصوافيج » في مدرسة الفرير في الخرنفش منذ صغره حتى انه كان يفوز ابتداء من التاسعة من عمره بجائزة في الموسيقى والعزف على الكمان في كل عام .

وعندما بلغ الثانية عشرة من سنيه سمعه صديق والده فريد بابا زوغلي باشا يعزف على الكمان ببراعة ادهشته فاهداه كماناً بقي محتفظاً به .

وفي عام ١٩٠١ اسس صديقه جورج طنوس صاحب جريدة « الرقيب » جمعية « مجتمع التمثيل العصري » تضم نخبة من الشباب المثقف كان هو ملحن اغاني رواياتها ومعلماً للممثلين . كما كان يلحن الاغاني لغيرها من الجمعيات .

وقد شغف بصوت الشيخ سلامه حجازي الذي بلغ من اعجابه بالحان اسكندر شلفون وهو في السابعة عشرة ان كلفه بتسجيل اغانيه « بالنوت » .

وفي الثامنة عشرة وكان قد اتقن العزف على الكمان والقانون والعود انخرط في سلك موظفي الحكومة في القاهرة وكان يحسن العربية والفرنسية والانكليزية .

ثم هفا قلبه الى فتاة احبها واعتزم الزواج منها على ان اباه عارض بذلك لضآلة مرتبه فتملكه الغضب، وهجر منزله، وعمد الى خطبة فتاته، وظل يعيش وحده زمناً حتى اصلح بعض رجال الدين ما بينه وبين ابيه . فعاد الى منزل ابيه بعد ان ارغم على فسخ خطبته من الفتاة التي يهواها وفي قلبه ما فيه من وجد واسى .

تهالك على السهر كي ينسى ما يكابد في غرامه ، واصبح يقضي لياليه مستمعاً الى مطربي عصره . فتذمر والده من سلوكه . ونصحه ان يكف عن السهر ضناً بصحته . فترك منزل ابيه للمرة الثانية ، حيث عاش كما يشاء على انه ما انفك ان اصيب بمرض فكان اخوه الاصغر نجيب يحدب عليه ويزوره بمنزله يومياً واذا به ذات يوم وقد لج به الهوى فرغب الى اخيه نجيب بان يذهب الى خطيبته

السابقة مأتيلد حكيم ويحضرها لعنده. فاذا بالفتاة تبادر اليه باكية فالفته طريح الفراش وهو في دور النقاهة واذا به يبثفتاته نجوى قلبه المعذب . وما لبث الحبيبان ان تفاهما . وتعاهدا على الاتحاد الابدي. ثم ما برحا ان ارتبطا برابطة الزواج بلا موافقة والديه.

وبعد مرور ردح من الزمن قرر ان يعيد علاقته مع ابيه ، فاذا به ينتبذ مكاناً امام منزله وتدخل اليه عروسه . فتواجه اباه فيسألها عن حاجتها لانه لم يكن يعرفها فاذا بها تنفجر باكية فيهتف الوالد بدهشة ورفق. «اظنك زوج اسكندر» فنطقت دموعها عنها فرق قلبه ونادى زوجه قائلا : « تعالي انظري عروس ابنك اسكندر»، فعانقتها الوالدة و بللت خديها بدموعها ثم عكفت تستعطف زوجها كي يصفح عن ابنه فاذا به يسأل « اين اسكندر الان؟» فاجابته عروسه : « انه ينتظر خارجاً يا عماه » « فطلب اليها ان تدعوه فكانت ساعة مؤثرة تجلى فيها العطف الابوي بأجلى معانيه.

ومرت الايام سراعاً فاذا بالوالد يحيي بمنزله حفلة عماد لحفيده « وحيد » كان العازفون فيها الاسرة الموسيقية حيث كانت اصواتهم وآلاتهم ترافق اصوات الكهنة.

ثم رزق بفتاة اسماها « كاملا ».

وبعد مرور عشرين سنة استقال من وظيفته في الحكومة وهنا ابتدأ جهاده الخطير في الموسيقى اذ بذل جهوداً جبارة في خدمة الفن وازدهاره وذلك بما الف وترجم من كتب وروايات وبما نظم ولحن والف من اغان وموسيقى حتى تمتع بمكانة رفيعة في عالمي الادب والفن كما برزت مواهبه وتجلى نبوغه ولكنه لم يحفل بما احرزه من شهرة واسعة بل استمر يناضل ويضحي ويذيب شبابه ويضني صحته في مثله الاعلى ورسالته الفنية اللذين بعث لنشرهما في البلاد العربية .

وفي عام ١٩٢٨ سافر الى تونس لان نفسه الطموحة ابت الا ان يجوب آفاقاً جديدة ودنيا رحبة لاذاعة الفن . فاذا به يقيم حفلات عديدة . ويلقي محاضرات ودروساً فنية كما طفق ينشر الموسيقى العربية في تونس والجزائر نحو ثلاث سنوات فحاز على تقدير باي تونس . واناله بالوسام التونسي من الدرجة الاولى.

ثم قفل عائداً الى مصر بعد ان ظفر بانتصارات فنية جديدة اضافها الى انتصاراته السابقة ومكث زمناً في مصر سافر بعده الى باريس عام ١٩٣٠ فزار « الكونسرفتوار الموسيقي الفرنسي » وباحث الموسيقيين وناقشهم في اسرار الموسيقى العربية وفنونها فبهرهم بوفرة معلوماته وغزارة ثقافته وسعة اطلاعه فاعجبوا بمواهبه واحترموا نبوغه .

وبعد اوبته الى مصر وقد ظفر على رأسه اكليل من المجد عاد الى كفاحه الموسيقي وجهاده الفني ونضاله العلمي واذا به يتعرف الى «سوسن» فراقه ما يتوسم فيها من موهبة موسيقية. فاذا به يخصها بعنايته ويلقنها الفن حتى غدت مطربة معروفة تذيع ولا تزال في الراديو ومعظم ما تغنيه من انتاجه . ثم رافقته « سوسن » الى بيروت عام ١٩٣٢ .

المأساة

تحول اسكندر شلفون في لبنان وسوريا حيث اقام بضع حفلات مترقباً ان يلاقي من الموسيقيين والشعب والحكومة ما يستحقه من التقدير والاكبار ولكنه لقي من فقر الفن واحتقاره ما حز في نفسه . كما انه راعه ما نسجه الموسيقيون حوله من المكائد وما حاكوه من الدسائس لما تأكل قلوبهم من الحسد الفظيع ولما شاع في نفوسهم من الغيرة القاتلة لانهم ادركوا اي رجل انتصب امامهم وقد خشوا ان يكشف عجزهم وضعفهم وخافوا ان يفضح جهلهم وسيئاتهم ويزاحمهم في عالم الفن كما فعل في مصر مع كثيرين من الموسيقيين. على ان اسكندر شلفون لم يأبه لما بدر منهم ومن « سواهم » من تقصير مهين واضطهاد مشين لان نفسه النبيلة وقلبه الكبير وخلقه السمح ارفع من ان يكترث لمثل هذه الصغائر . لم يحفل بذلك ولم يفكر فيه لانه كان عظيم الثقة بنفسه ومقدرته ولانه كان قد تعب من المجد وشبع من العظمة وارتوى من الشهرة .

ولكن ثمة رجل نبيل دمث. هو وديع صبرا خريج الكونسرفتوار الفرنسي في باريس ومدير «الكونسرفتوار الموسيقي الوطني» في بيروت كان يدرك اي عبقري كان اسكندر شلفون فاذا به وقد غمره بلطفه وعنايته واحاطه بتقديره واجلاله . قد آلمه ما عاناه زميله العظيم من معاني العذاب والبؤس فاذا به يبذل جهده لتعيينه استاذاً في معهده كي يستفيد الطلبة والبلاد من مواهبه الشاملة وذلك بمرتب جد تافه غير جدير بدرس واحد من دروسه النفيسة . غير ان اسباباً قاهرة ومؤسفة . بل ان جهلا واستهتاراً حال دون تعيينه فدل هذا على قسط النوابغ من تقدير بلادهم . فدهش وديع صبرا لهذا التقدير المعكوس وهذه الصدمة المؤلمة وهذا الاهمال المخجل يمنى بهما مفخرة البلاد العربية . فوجم الموهوبان . وذرفا دمعة حارة على شهداء النبوغ يدفنون وهم احياء في مقبرة النوابغ ثم اذا بسمة مفجعة ترتسم على شفتي

قلق

☆

من ذا الذي يطرق
نافذة بيتي ؟
الظلام الرهيب
يكفنني بجلبابه
منزلي على قارعة الطريق
يرصد العابرين
في قلق
والمدلجين
في ذعر

***

مسرحتي

قد اطفأتها العاصفة
وحطمت اغصان دوحتي الرياح
من ذا الذي يطرق
نافذة بيتي
ايها الآتي
من وراء الابعاد
اذهب .
لن تجد احداً هنا
لن تجد الا القلق
ولن تجد اليأس

البحرين ناصر ابو مجيد

اسكندر شلفون المرتجفتين فتلتقط يده المرتعشة من على رأسه اكاليل المجد والوسام من على صدره وترميهما الى الارض بذهول ويدوسهما بتراخ . ثم يطرح وشاح العبقرية من على كتفيه المثقلين بالعظمة والشهرة بيأس ساحق .

واذ هو كذلك ترهقه الآلام النفسية وتبهظه الاحزان القلبية انهار عليه مقهى « كوكب الشرق » في بيروت في ١٤ اذار سنة ١٩٣٤ فقضى تحت انقاضه عن ثلاث وخمسين سنة شهيد ظلم المجتمع البشري وجشعه . واستراح من جهل الانسان ولؤمه .

قضى اسكندر شلفون صريع جهاده الجبار في سبيل ازدهار الموسيقى العربية وعظمتها ، قضى ضحية اخلاصه وصدقه وتفانيه . ولم يشيع نعشه المتواضع سوى حفنة من تلامذته المخلص دامي القلب ، دامعي العين منكسي الرؤوس على النبوغ يداس ويدفن في وادي النسيان . ولكن كانت بلابل الروض وعصافير الحقل ترفرف فوق جثمانه مغردة ترثيه وكانت العبقرية تعانقه وتبكيه .

وبينما اصبح هؤلاء الذين حاربوه وقتلوه من النكرات وقد عفت اسماؤهم وطواها العدم . تألق اسم اسكندر شلفون باحرف نورانية في سجل المجد بطلا من ابطال العبقرية الخالدين .

واراد وديع صبرا ان يقيم له حفلة تأبين كبرى في الكونسرفتوار وبعد ان طبع بطاقات الدعوة ووزعها ونشر اسماء الخطباء وكانوا من كبار الادباء والعلماء اذا بامر سحري يصدر بالغاء الحفلة فتالم وديع صبرا اشد الالم لما اصاب صديقه وزميله حتى بعد وفاته .

ويجدر هنا في الختام ان نذكر شيئاً عن المخطوطات المنوعة التي تركها اسكندر شلفون من كتب في علوم الموسيقى وكتب شعرية وادبية والحان موسيقية الفها وسجلها بالنوطة فقد امتدت اليها يد الجهل او يد مغرضة لست ادري ورمت بها ، في اليوم الذي فتحوا فيه رسمياً غرفته المتواضعة لحصر موجوداتها ، في صندوقة كتب عليها « مهملات » واكتفوا بتسجيل عدد المقاعد والموائد وقطع الملابس اما المخطوطات ، وبينها كتاب عرض المرحوم الاستاذ جبران تويني وزير المعارف اللبنانية سابقاً ٥٠٠ ليرة في ذلك الوقت مكافأة لمن يجده اذ كان ينوي ان يطبعه على نفقته ، اما هذا التراث الضخم فقد ذهب ... ذهب مع الريح ... والله اعلم اين ذهب .

منير الحسامي

الارض

لتلوستوي

مترجمة عن الانجليزية بقلم

الآنسة سميرة عزام

جاءت اخت من المدينة تزور اختها القاطنة في القرية وكان زوج الاولى تاجراً وزوج الثانية مزارعاً .. وبعد ان استراحت الضيفة قليلا وشربت من الشاي اكوابا عدة جلست تثرثر وتتحدث عن حياتها في المدينة .. ماذا تأكل وكيف تعيش والى اي الاماكن تختلف ... اما زوجة المزارع الريفي فقد تصدت بدورها للتحدث عن شؤونها ... قد تكون حياتنا في القرية خالية من الاثارات ، لكنها حياة طيبة . قد لا نكون اغنياء ولكن لدينا الكفاية ، وفي هذا ما يجعل للحياة طعماً مستحبا .. اما انتم في المدينة فتعيشون وشبح الدمار يتهددكم في كل لحظة لا سيما وزوجك من معشر التجار الذين لا تفتأ ثرواتهم تتأرجح بين صعود وهبوط .

واثار كلام الصغرى عصبية شقيقتها فقالت .. «ماذا تقولين؟» «اتحسبين حياة يشارككم فيها المواشي والخنازير حياة ؟» مهما بلغت فلن تسمي عن الطين قط .. الطين الذى يلصق بكم احياء امواتا .

وردت زوجة الفلاح بهدوء ـ « مهما يكن ، فالارض لنا ، ونحن احرار وليس من حاجة تدفعنا الى ان نعنو لاحد .. اما انتم في المدينة فحياتكم حياة فضائح .. حتى زوجك لا تأمنين عليه من اغراء الخمر والورق والغواني .. اليس كذلك ؟ »

وكان باكوم ـ الفلاح وزوج الصغرى ـ جالساً قرب المدفأة مرهفاً سمعه لما يدور بين الاختين فقال في نفسه ـ ان الحقيقة هي ما ذكرت زوجتي .. انا مثلالم اعرف في حياتي الا الارض ، اذا اعطيت مزيداً من الارض فلن اخشى احداً حتى ولا الشيطان وكان الشيطان ساعتئذ مختبئاً في زاوية من زوايا الغرفة فسمع قول باكوم ، وضحك ضحكة ابليسية وقال : حسنا انا لك يا باكوم ساعطيك الارض واسترد عطائي ...

وكانت تعيش في تلك الناحية سيدة غنية تملك مساحات من الاراضي شاسعة .. رغبت في ان تبيع ارضها .. ولم يكن بين فلاحي القرية من يقوى على شراء اراضيها جملة . فالتمسوا منها ان تقسمها الى اقطاعيات صغيرة تبيعها للفلاحين .. فتقدم باكوم لشراء اقطاعية وفي جيبه مائة « روبل » ليس الا ، اضاف اليها ما كسبه من بيع دجاجاته وخلايا النحل التي يملكها ، كما اضطر الى دفع ولده للعمل لتتوفر لديه بضعة روبلات اخرى . وغدا مالكا للارض ، وكبر في عين نفسه وصار يرى ان للاعشاب والمزروعات شكلا ولوناً لم يكن لهما قبلا . فياخذه الزهو كلما نظر الى مواشيه وكوخه وارضه .. وملحقاتها .

وكان من الممكن ان تسير به الحياة على احسن ما يتمنى لو تركه اخوانه المزارعين وشأنه .. ولكن بعضهم كان يحلو له ان يعاكسه فيسمح لمواشيه بان ترعى في ارض باكوم .. كما كانت خيولهم تتسلل الى حقل الحنطة فتلتهم غلاته . وجرب باكوم ان يكون جازماً معهم فيطرد مواشيهم كلما لاحت على اطراف حقله . فلم يرعووا . ووصل به الامر الى رفع شكواه للمحكمة ليعلمهم درساً لا ينسى . وبدأ باول المحاكمين وثانيهم وثالثهم . وكانت هذه الشكاوى عاملا لاثارة الضغينة في نفوس مجاوريه . فازدادت مناوأتهم له . فكان يستيقظ في الصباح على زرع تالف او شجر مقلوع . ولم تفد شكواه في اصلاح الحال فسكت على مضض الى

قصة

ان ارتفعت في الناحية نغمة الهجرة التي انتواها بعض المزارعين الذين ضاقت بهم اسباب الحياة هناك .

ولم يفكر باكوم تفكيرهم ..

بل ارتاح لرحيلهم اذ عزم على شراء القطع الصغيرة التي يملكونها ، فتزداد ارضه اتساعاً . وقد حدث بعد ايام ان استضاف باكوم غريباً مر بالناحية فجلس واياه بعد العشاء وراح يستفسر منه عن النقطة التي اقبل منها فقال هذا بانه قادم من بقعة تقع وراء الفولجا .. حيث تخصب الارض خصباً عجيباً فتعلو اعواد نبات الجويدار بحيث يختفي وراءها حصان . وحدثه عن غرباء اقبلوا على شراء الارض منهم رجل لم يكن يملك الا يدين يعمل بهما ولكنه بعد حين غدا صاحب ثروة تقدر بخمسة الاف روبيل .

ولم ينم باكوم ليلتها اذ ظل يفكر بالارض التي تنبت الذهب الاخضر . وظلت الفكرة تداعب رأسه بعد رحيل الغريب حتى اختمرت . فقرر ان يمضي في رحلة استكشافية . لم يلبث ان قام بها عند حلول الصيف وتأكد بنفسه مما قاله الغريب الذي كان صادقاً في كل حرف من روايته لقد طرب باكوم اذ وجد الارض على خصب ووجد الناس على استعداد لان يبيعوا بارخص الأثمان فعاد الى قريته وسارع بتصفية اعماله ثم شد الرحال مع زوجه واطفاله الى ما وراء الفولجا .

وفي مقره الجديد وفق الى شراء مساحات من الارض كان يزرع بعضها قمحاً وبعضها بالجويدار وسهر باكوم على ارضه فاخصبت وامتلأت جيوبه بالنقود واشرق وجهه بابتسامة الغبطة والفرح . ولم يعد يطلب من الحياة مزيداً . ولكن طمعه عاد وتحرك اذ مر به ذات يوم تاجر قال انه آت من مقاطعة بشكير حيث يملك فدادين كثيرة حصل عليها عن طريق سهل . فالناس هناك كالخراف لا يفهمون للارض قيمة .. وهدايا بسيطة كفيلة بان تجعلهم يهبونك منها ما تشاء .

وتحركت غريزة الجشع في نفس باكوم ولم يقو على النوم ليلتئذ الا بعد ان جمع من ضيفه ما يشاء من معلومات وبعد ان قر عزمه على الرحيل في اول فرصة تسنح .

وما هي ايام الا واصطحب احد عماله وسافر واياه محملين بالشاي وشراب الفودجا وهدايا اخرى كان التاجر قد نصحه بحملها معه في عربة اوصلتهما الى المكان المنشود في سبعة ايام فوجد الامر على ما قال الرجل .. الناس سذج يعيشون في عربات ويعتنون برعاية الخيول ويشربون حليب الافراس ويلهون بنفخ النايات . وحالما وقع بصرهم على باكوم وتابعه تحلقوا حوله فاخبرهم هذا بغرضه فسروا واخذوه الى عربة من عرباتهم حيث اجلسوه على وسائد وقدموا له شراباً غريباً . ولم

يجد ما يكافئهم به سوى ان يفتح لهم جرابه ويقدم لهم بعض ما يحمل من هدايا . كما خص كبير القوم بهدية ثمينة . وبعد تقبل هداياه شاكرين قالوا ـ « والان ، هلا سمحت لنا ان نقابل كرمنا بالمثل ونلبي لك رغبة تطلبها. فقال: « الارض،ولا شيء سوى الارض » .

فابتسم كبيرهم وقال ـ « حسناً .. لك ما تشاء » .

ـ ولكنني ارغب في التعرف على القطعة ـ التي ترغبون في بيعها .. وان تسجل باسمي رسمياً ، فالله هو رب الحياة والموت وليس من المستبعد ان يسترد اولادكم يوماً ما وهبتموه اتم لي.

ـ لا تسجيل هنا ، ان كلمتنا هي الوعد القاطع .

ـ ولكنني فهمت بان تاجراً كان قد اشترى منكم ارضاً وانكم اثبتم ملكيته للارض بشهادة ، واوراق رسمية .

ـ اذا كنت عند اصرارك فلا بأس وسيصحبك احدنا الى المدينة لعمل الاجراءات اللازمة .

ـ بقي ان اعرف الثمن الذي تطلبونه للفدان .

ـ الثمن..؟ الثمن ايها الضيف هو الف روبل لليوم الواحد.

ولم يفهم باكوم ماذا يعني الرجل بقوله الف روبل لليوم الواحد فقال « كم تعطونني من الارض مقابل الالف روبل » .

ـ المساحة التي تستطيع ان تمشيها في يوم كامل تصبح ملكا لك لقاء الالف روبل مهما بلغت طولا .

ـ ولكن أنى لكم ان تعرفوا طول المسافة التي قطعتها ؟

ـ تبدأ من بقعة معينة اقف انا عندها ثم تأخذ بالمسير ويتبعك بعضنا في عربات لتعيين الحدود التي تصلها وعليك عند مغيب الشمس ان تكون قد عدت الى النقطة التي بدأت منها .

وهكذا قبل باكوم واعجبته الفكرة فعجل بالنوم ليبدأ سيره مع الفجر ولكنه لم ينم الا قبيل النور بقليل اذ صرفه التفكير في الارض عن ذلك ، فاغمض عينيه على حلم عجيب لقد رأى فيما يرى النائم زعيم القوم جالساً فما ان اقترب منه وتفرس في وجهه حتى رأى له وجه شيطان وسمع منه ضحكة ابليسية، كما رأى رجلا مستلقياً امامه على الغبراء فلما حدق اليه رأى انه يحمل نفس وجهه ، فاستيقظ مذعوراً ولكن سرعان ما تبدد ذعرة حين شغل نفسه باعداد العدة للسير .

وصحب خادمه وجد بالمسير. وايقظ القوم ليتبعوه ، فشاءوا ان يقدموا له شايا ولكنه استعجلهم وأبى ان يشرب شيئاً .

وقبل ان يهم بالمشي قال له الزعيم .. اسمع من هذه النقطة تبدا ، ضع نقودك في حفرة ودع عليها حرساً من خدمك . ثم اتجه الاتجاه الذي تريد ..

ونظر باكوم فوجد الارض خصبة ريانة فحار من اين يبدأ ولكنه ارتأى ان يسير نحو مشرق الشمس وان يجد في السير قبل ان يلتهب قرصها فيكسل عن المشي السريع .

وبعد ان قطع مسافة امسك عوداً وغرسه في الارض ثم استأنف السير عجلان . وكان كلما قطع مسافة جعل لها علامة .

وارتقت الشمس عرشها وراحت تنفث حرارتها في الارض والاحياء فشعر باكوم بالحرارة فنزع معطفه ثم حل حزامه ثم تخفف من بعض ما يلبس . وجف حلقه واحس بظمأ قاتل فبلل حلقه بقطرات من الماء .

وكان النهار قد انتصف فشعر بحاجة الى ان يطعم ويستريح قليلا فجلس واصاب قدراً من الطعام يسيراً واستراح دقائق ثم نهض وعاود المشي من جديد . وانعطف في سيره الى اليسار اذ اشتم رائحة الجودة في قطعة ارض ومشى ، وسار وئيداً قرص الشمس ينحدر نحو المغرب .

فنظر اليها باكوم محسوراً ولكنه خشي الا يتمكن من العودة الى المكان الذي بدأ منه قبل المغيب.فولى عائداً ثم وجد ان لا بد من الركض فركض بكل قوته وتصبب العرق غزيراً من جسمه ولكنه لم يبال .. كان الامر بالنسبة له حياة او موتاً .

والاضاعت نقوده وتسربت منه الارض . واستجمع بقية من قوة صبها في عدوه ونظر الى الشمس ثانية فخالها قد اختفت وراء الافق . فاخذه اضطراب . ولكنه عاد وعزا الامر الى ان عينيه المكدودتين لم تعودا تقويان على الابصار ولم يبق بينه وبين القوم سوى امتار قليله ولكنه شعر بان هذه الامتار القليلة اقسى عليه من كل المسافة التي طواها . وركض فما لبث الدم ان تدفق من فمه غزيراً حتى اذا بلغ المكان وقع امام قدمي الزعيم لا حراك به. لقد مات ...

وتقدم الزعيم .. وقال : ايه ايها الرجل لقد كسبت كثيراً في الارض وركض الخادم صوب سيده جزعاً صائحا .. اما الزعيم فقد وقف يضحك ضحكة ابليسية..ويداه على خاصرتيه .

ثم التفت الى الخادم وقال .. ادفنه .

وتفرق الناس ولم يبق الا الخادم والجثة..الجثة التي استقرت بعد دقائق في قبر لا يزيد عن المترين كانا كل حظه من ارض الله الواسعة .

ليماسول ـ قبرص

سميرة عزام

حياة جديدة

☆

الليل ممتقع الظلام على الروابي والسفوحْ
والريح عاوية ... فتعوي بين أحنائي الجروح
وتفرّ أوهامي كغربان مخالبها دماء
لتعود تنهش ما تبقى من أحاسيس الهناء
.. ودمي على شوك المضيقْ
.. ويدي على الامل الغريق
وأنا ... أنا وحدي ... يهدمني ويأكلني الطريقْ

***

أمشي وفي عينيّ آلام المسيح على الصليبْ
خطواتيَ العمياء كالجرذان .. صماء الدبيب
لا نور .. إلا رعشة صفراء من خيط أراه
ينسلّ في عيني وينثر فوق آلامي رؤاه
وورائيَ القفر الجهوم
فلا رجوع
وامامي الدير الرؤوم
فلا دموع
لم يبق إلا أن يرى الفجر النصوع
شبحاً يودع نفسه .. ورؤى الحياة الفائته
ويجر فوق حصى الدجى مِزَقَ الرغاب المائته .. ؟

القاهرة — كمال نشأت

الشخصية اللبنانية في الادب الحديث

بقلم نسيم نصر
مدير الدروس في كلية الشويفات

ليس في ما تحاوله الافراد والجماعات من الناس ادعى الى وثوقهم بنفوسهم وبلوغهم اهدافهم من جلاء شخصيتهم، في نطاق الاعتدال وحس الميزان . واذا كان لبنان، بين قوى المادة ودنيا المساجات ، لا تتبين له اليوم قيماً ذات شأن كبير ، فانه من النواحي الفكرية ، يطلق امام عيني الدارس أضواء تقع على خطوط حسان تؤلف شخصيته الادبية ، في كثير من الذوق ، وقدر معتدل من العلم ، ورواء يزدان بطرف الفن، في مواكب الادب خلال العصور .

وهاكم الاركان الاربعة التي تبدو الشخصية اللبنانية مستندة اليها ، قائمة على اساسها : وهي ، العراقة والاقليمية والثقافة والتماس بالاداب العالمية .

ليس بين الموروثات البشرية مثل العراقة تراث ينتقل في حيز من الانضباط المستمر لمخلفات الفكر ، يتناولها الخلف عن السلف أساساً يشاد عليه وبناء يستعلى فوقه ، وقد اصبح العود الى مثل هذا الكشف عن عراقة الفكر اللبناني امراً جلياً مسلحاً بصحته ، فالقلم اللبناني الحديث تراث عن معلمي الحرف الاول وزارعي النواة البكر على شاطىء البحر المتوسط، حاضنة المدنيات الاولى ومرافىء الانطلاق في كل ما يستطيع الانسان الانطلاقة فيه ، بانياً معمراً وهادياً معلماً .

والعراقة معوان عظيم تشحذ المواهب الموروثة وتبتده العصاميات بالمحاكاة وتربي الملكات بالاستمرار فتؤلف من مئات الناس جنوداً للمعرفة لا يتوفر مثلها في بلاد الملايين احيانا . ولست ادعي في هذا القول، للبنان فوق قدره ولا أنسب اليه غير الواقع في أمره . وفي مصادر التاريخ اللبناني التي عنيت بدرسها ، بين قديمها وحديثها ، سنين عديدة ، وقعت منها على شواهد تثبت ان الصلة الفكرية من قدموس الى جبران ، مثلا ، لم تنقطع وأن العراقة الادبية المتوطنة ارجاءه بدت دائماً عنصرا خيراً في المقيمين من ابنائه والمغتربين ، يصدرون عنها في أصالة من الحرص على الفكر ، في منثوره ومنظومه ، بنتاج إن اعوزته احياناً منابع الغور فما خلا مرة من طرافة الذوق وملامح الفن . ولن احاول ، حباً بالايجاز ، تقديم الشواهد المفصلة ، وانما اكتفي منها بالاشارة الى ان سعي اللبناني ، على ارضه او في غربته ، وراء المكاسب المادية ، لم ينفصل به مرة واحدة عن اطمئنانه الى ان قيمه المعنوية الموروثة لن تنهزم امام مطامح الثروات الطائلة، مهما ارتفع بنيانها واتسعت اطيانها. ولنا بكبار اغنيائنا المهاجرين دليل واضح على صحة ما نقول ؛ فهم ، تحت كل كوكب ، ولا سيما في الاميركتين يجمعون الى حطام دنياهم الوفير آيات النزوع الاصيل ، الى منازل المعرفة العامرة ، وميادين الجاه المجدي العريضة ، واستبقاء الآثار الخالدة في وطنهم العريض ، لبنان ، وفي اوطانهم الجديدة التي تخيروها مجالي ومجاني لطموحهم الموروث .

ولئن كانت نزعة كبرياء ارستقراطية الدم طفرة جامحة لا يقرها التراقي البشري الصحيح فان الاستناد الى العراقة الفكرية ركن ثابت في تدعيم الشخصية في طريق الاستقرار الحضاري.

وللاقليمية فلسفة خاصة بها ، في دراسة الاداب العالمية والمحلية ، اسرف بعض معتنقيها في تقدير تأثيرها ، فجعلوها ضابطاً شاملا ومُستوحى كاملا تخلق الشخصية وتربيها وتنميها على غرار للجغرافية فيه وللبيئة كل حول و نصيب .

غير ان هذه الفلسفة ضاقت عن ان تستوعب آفاق الادب ودروب المعرفة ، في انطلاقاتها البعيدة المدى فبقيت مقاييسها ومفاهيمها صحيحة التقدير والتمييز ، في تناول الشخصيات المدومة في اجواء محدودة واخطأت احكامها في العبقريات المحلقة في رحاب النقض والابداع .

ولست اعني في تعليقي على هذا المذهب التحديدي «الاقليمية» ان طبيعة لبنان ليس لها يد في تنشيء ادبائها ومفكريها، ولكني اريد ان اخلص الى القول ان السمات البادية على الادب اللبناني

تستمد غالباً ، جمالها وتنوعها من مجالي لبنان الفاتنة دون ان تحد من امتدادها الى ما هو ابعد من مشهد العين ونزهة الخاطرة. ولذلك قدمنا العراقة التي تغذي الاصول في النفس فتنبثق من مرئيات البصر مسابح للذهن ينطلق عليها الى كل فضاء وينحدر الى كل غور.

ولئن كان لم يتوفر للبنان من المساحة الحيوية والمقومات الدولية ما حفظ له دعته واتزانه واستقراره ينهض بعبء الشخصية الراضية عن يومها المطمئنة الى غدها ، الا في فترات متقطعة من الدهر ، فانه لا يصح استناداً الى تلك الموجات من القلق ، ان نصرف نظر الباحث عن اقليمية المميز وموقعه الفريد وجماله النادر ، لندعي انها لم تكن دواء مدخراً وجناحاً مستعداً للتحليق بقدر ، ان لم يدع الى الاعجاب فانه يحمل على الرضا .

وتقريباً لمقياس الفهم أعمد الى القول الشائع ، في مجال اعتماد الاقليم عنصراً مسيطراً على الادب ، ولا سيما الشعر ، « لبنان اندلس البلاد العربية » فاقول :

على الرغم من تعبد ادباء العرب لوطنهم الجديد، الاندلس ، ومع التسليم بجمال هذا الوطن ، الذي امتلك قلوبهم واستهوى قرائحهم فاستشفوا سحره ، حتى جاء شعرهم ، على حد قول احدهم « وكأنه قطع الرياض » فانهم قصروا في بداهة الفكر وإشراقة المعرفة ، عن شعراء طبيعة لبنان . ولعل بضع مئات من السنين فصلت بين عهد العرب في الاندلس وعهد لبنان بمثل الادب الاندلسي ، الذي نحمله الى المقارنة ، تقوم حجة لقائل يقول : « هو الفاصل الزمني الذي اجدى على اللبنانيين هذا التفوق » . ومثل هذا القول مردود بشاهد ان المستوى الفكري الذي أمن للاندلس ، آنذاك ، ابن رشد وابن باجه ، كان باستطاعته ان يهيء لهم امثال سعيد عقل في ابداعه وابي ماضي في فلسفته والاخطل الصغير في غزله وخمرياته لو ان الشخصية الادبية الاندلسية وجدت ارتفاعاً فنياً الى مستوى مثل هؤلاء اللبنانيين.

وفي العطف على هذا الشاهد ، تبدو الثقافة عاملا ثالثاً بارز الطوابع في ادب العصر ، في لبنان ، بروزاً يتفق فيه ويختلف بقدر ما تتآلف الاحكام في القيم الثقافية في كل زمان ومكان ، لا بل بقدر ما تتجانس تعاريف الثقافة نفسها في نظر متناوليها بالتعريف ، في وطيس هذا الصراع المستمر بين الروح والمادة.

فمن تناول الثقافة ليعرفها مستندة الى مبلغ سلطان الانسان المخترع العالم ، على الطبيعة وقواها الجسيمة والدقيقة ، اعلن ان منتصف القرن العشرين هو موضع القمة مما توصل اليه الانسان من مقومات الفكر والحضارة ، ومن نظر اليها من خلال تراقي الانسان في العدل الاجتماعي وضمانة الحقوق وتبادل الواجبات، احسها تتلاشى او توشك مشدودة بقيود المادة ، تحد من مداها الخلاق حواجز شريعة انسان الغاب في العصور الحجرية .

وفي تباين التعاريف الثقافية نرى الشخصية اللبنانية تميل الى الاخذ بمفهوم الثقافة ، كما يراها هؤلاء المتبقون على خلق الانسان الخير ، فينزعون بمستطاعهم الى الارتواء من ينابيع الحس ومناهل الطبيعة ، او الى الاعتكاف في مناسك النفس المتبتلة ، او الى الانطلاق في آفاق الخيال المشرق ، او الى ارتياد سماوة الملاحم المنبثقة الآماد والاعماد من اعماق الاساطير اللبنانية المعبرة ، منذ نشوئها ، عن منازع الانسان المجنح .

ولكنها المادة التي طغت في غفلة من ضمير العلم ويقظة من ضراوة السياسة هي التي جهمت وجه الثقافة العالمية ، وهي التي اخذت ترينا انفسنا ، في لبنان ، وترى سوانا من صغار الشعوب عدا ، اننا واياهم ضعاف ضئال اذا ما قرعتنا مادة الاقوياء الكثر واستبدت بنا آلاتهم !!! ولو لم يكن الواقع كذلك ، فلماذا كان لنا ، وما نزال ، في صحوات الدهر على منابر الامم ، وفي خزائن فكرها وآدابها ، افراد لمعوا شخصية واثراً ، نذكر بعضهم كأمين الريحاني وجبران خليل جبران وفوزي المعلوف وحبيب اسطفان وميخائيل نعيمه وسواهم ممن لا يتنقص مواهبهم العالمية اكتفائي بمن سميت .

ولكنها ايضاً الطاقة التوزيعية التي لا تخرج ايضاً عن طغيان المادة هي الاخرى ، لضآلتها ، في لبنان ، حالت وتحول دون نشر الكثير من نتاج ادبائنا القيم وتقف حاجزاً دون اقبالهم على التأليف ، وربما شدتهم والحاجة الى السعي خلف الرغيف .

وهذا الضيق المادي نفسه ايضاً هو الذي حمل ، في من حمل على النزوح عن لبنان ، ادباء كثيرين ، الى مهاجر قريبة وبعيدة، لو شئت تعدادها لضاق به عدد غير قليل من الصفحات . ومن هنا وهنالك شعت مواهبهم ، كما تعود الشمس الى الطلوع المشرق بعد الغياب. وتغلب على ادب الكثيرين من هؤلاء الادباء النازحين تأملية تميل الى الوجدان ، في صخب هذه التيارات العالمية الجامحة عن جواد الروح .

وهكذا يتضح لنا من هذا العرض الخاطف ان الشخصية الادبية اللبنانية تستطيع ، لو انفرج عنها خناق المادة وانفسحت لها رقعة الحياة الحرة ، ان تجيء في الطليعة الناهضة الى مراقي التجدد والخير والقيم الخالدة .

نسيم نصر

مدخل الى الموسيقى الكلاسيكية

بقلم صميم الشريف

لا يمكننا التحدث عن الموسيقى الكلاسيكية وطرق تحليلها الا بعد دراستها الدارسة الوافية المبنية على اساس التجربة . والتجربة في الموسيقى هي الاستماع اليها، وايجاد جو الانسجام المرتبط معها كل الارتباط

ونحن اذ نقدم حديثنا الاول هذا، انما نقدمه لنعطي القارىء الفكرة الصحيحة عنها ، ولنوجهه الى طريق الفهم الصحيح باسلوب بسيط ، لا تعقيد فيه ولا ابهام ، ونحن لا ننكر ان اتاحة افهام الموضوع وتقريبه الى الاذهان مهمة صعبة ، انما سنحاول جاهدين ان نتجنب كثيراً من الاصطلاحات الفنية المعقدة التي لا غنى عنها في هذا النوع من البحوث والدراسات الموسيقية .

قد يعترض بعض القراء بان مثل هذا العمل غير ضروري لتذوق وتفهم الموسيقى الكلاسيكية التفهم العميق ، وقد يفضل البعض ان يصغي الى هذه الالحان بصورة سلبية دون ان يجهد ما تحت الشعور . وقد يقول البعض الآخر ان هذا من اختصاص الموسيقي وحده . وعلى هذا نجيب :

ان الاستماع السلبي الى الموسيقى الكلاسيكية لا يمكن ان يوصلنا الى ما يصبو اليه الفنان من التعبير عنه !! اذ ان هذا الانتاج الفني هو اشبه شيء بالمؤلف الفكري، والمقطوعة الشعرية، والكتاب الفلسفي ، وقراءتنا لمثل هذه المؤلفات تحتاج الى اساس فكري نعتمد عليه ، ويحتاج الى اجهاد فكري يختلف زيادة ونقصاً حسب المؤلف والمؤلف .

من هنا يجب ان نعلل سبب تلك الخيبة التي مني ويمنى بها الكثيرون من أبناء وطننا العربي عندما يحاولون تحدوهم رغبة صادقة في التعرف على الموسيقى الغربية والتلذذ بها، لان موسيقانا الحالية ليست غير اصوات بدائية لا تعبر الا عن مشاعر سطحية بدائية ، وهي كقراءة أي شيء عادي لا يحتاج الى اي جهد فكري ، او أية فاعلية – من قبل المستمع، ولا يتعدى ما تثيره هذه الموسيقى في غالب الاحيان ، الحركات الايقاعية توقعها الايدي تارة بالتصفيق واخرى تحرك الارجل بالدبك .

من كل هذا نستنتج امرين :

– ان تذوق الموسيقى الكلاسيكية يحتاج الى بعض الجهد والمعرفة كي يجني المستمع ثمرة استماعه لها .

– ان اللذة التي نستشعرها في هذا النوع ليست ولن تكون مطلقاً ذلك الشعور الذي نتعارف عليه « بالطرب » بل هو نوع آخر اذا احببتم دعونا « بالطرب النفسي او الفكري » كي نفرقه عن الطرب الآخر الذي المعنا اليه .

بعد هذه المقدمة نفيد بان مواضيعنا لن تكون مربكة او ذات ذيول ، لاننا سنحاول جعل كل موضوع مستقل بذاته عن الموضوع الاخر ، وقائم بنفسه لا تربطه مع غيره الاهمزة الوصل التي لن تكون غير الموسيقى نفسها .

وفي كلمتنا هذه سنتكلم عن اشهر افتتاحيات بتهوفن وهي : كوريولان ، اجمونت ، ليونوره الثالثة . على ان نحاول ان نبحث في اعداد قادمة.. بشكل مبسط وموجز، الافكار الاولية في تأليف الانغام الموسيقية فنبحث في « الآلات الموسيقية » و« السوناتافورم » اي الشكل والقالب للحن اساسي تتركب منه جميع المؤلفات الموسيقية و« الاختتامية » و« الكونشرتو » ويقابلها في العربي بوجه تقريبي « تقاسيم على الوحدة »

و «السمفوني - اي الملحنة» و «السمفوني - الملحنة ذات البرنامج» وغير ذلك ..

***

مع بتهوفن في اشهر افتتاحياته : موضوعها وتحليلها

مما لا شك فيه ان افتتاحيات بتهوفن تعتبر النموذج المثالي الكامل للافتتاحية ، وقبل ان نحلل اشهر افتتاحياته نفيد باننا سنشرح في مقال قادم «تركيب الافتتاحية» شرحاً مفصلا يعود بالفائدة المرجوة التامة .

كوربولان

هذه قصة اغريقية «لبلوتارك» وقد جدد كتابتها «شكسبير» بما اضفاه عليها من سحره الاخاذ . على ان بتهوفن اعجبته كتابة «فون كولينز» لها . وهو مؤلف روائي وشاعر عاصر بتهوفن وزامله .

تدور حوادث قصة كوربولان عند هذين الكاتبين دون اختلاف يذكر حتى آخرها ، وملخص القصة ، ان القائد الشاب كوربولان ابعد عن بلاده لاهانته نبلاءها واشرافها ، فاتفق هذا مع اعداء وطنه وهاجم بجيوش جرارة عاصمة البلاد روما وكاد يتم له الفتح ، غير ان زوجه وامه خرجتا اليه على راس جمع غفير من نبيلات روما فاخذوا يستعطفونه ويذكرونه بالوطن وحقوقه عليه حتى تأثر بما سمع ورحل بجيوشه بعيداً ، ولكنه اعتبر خائناً فحوكم وقتل كما تقول مسرحية شكسبير اما عند فون كولينز فانه جعل من عذاب الضمير عند كوربولان اقصى الارهاق النفسي فينتحر تخلصاً من هذا العذاب .

التحليل

هذه هي القصة ، اما تحليلها الموسيقي فان اول ما يلاحظ عند الاستماع اليها في بدايتها تينك الضربتين اللتين تعادان مرتين . والضربة الاولى طويلة وقوية ، والثانية قصيرة وشديدة وكأنها مقطوعة قطعاً . بهاتين النوتتين المضروبتين رسم بتهوفن شخصية كوربولان بقوته وجبروته . ثم انتقل بخطوط اخرى مماثلة فيروي لنا دون ان يخرج او يحور في النغم الاصلي - اي الضربتين - او يغير في استعمال الآلات الموسيقية فيشرح الحوادث ويصورها ويمر مروراً عليها كالقصاص الماهر في خلقه المفاجآت وتخلصه منها ، ولعل ميزة وضوح الفكرة عند بتهوفن ، والقدرة في التعبير عنها ببساطة من الاشياء الصعبة التي لا يستطيع غيره من الموهوبين الافصاح عنها .

ثم تتعاقب الانغام وهي مؤلفة من لحنين على غرار النوتتين السالفتي الذكر فيصولان ويجولان في جوار شيق يخال المستمع ان فيه مزيجاً من الهجوم والاندفاع والاستعطاف والرجاء . ثم نسمع لحناً عاطفياً شجياً سكب فيه بتهوفن كل حسه ورقته وعبر فيه عن خروج الزوجة والام لاستعطاف كوربولان فيحرك هذا النغم في اقسى القلوب ، واحط النفوس انبل المشاعر لانها انغام كتراتيل السماء . وفجأة بعد هذا ودون انتظار يعود بتهوفن لرسم شخصية كوربولان من جديد ضافياً عليها مسحة من



القلق ، فلا نحس الا بانسان يعذبه ضميره لخياناته التي ارتكبها ، وتكاد تكون الخاتمة حشرجات كوريولان الكئيبة ، وانفاسه المتقطعة التي يجود بها وقد فتك به عذاب النفس .

اغمونت

تجري حوادث هذه القصة التي كتبها « جوته » اثناء الحروب الدينية بين البلاد الواطئة هولندا واسبانيا في مطلع القرون الحديثة ، وفيها يروي لنا قصة الكونت « اغمونت » الهولندي الذي تفانى في خدمة وطنه وحبه لشعبه ببطولته الرائعة، وشجاعته الملهبة ، خلال الحرب التي شنها الشعب الهولندي ضد صنيعة اسبانيا الدوق « الفا » الى ان القي القبض عليه ، واعدم شنقاً وهو يؤدي عملا خارقاً .

التحليل

اتبع بتهوفن في كتابة اغمونت الطريقة التي سلكها في كوريولان من ناحية السرد الموسيقي ، فبعد ان افتتحها بنوتة طويلة قوية من مجموعة الاوركسترا ، اتبعها بعد سكتة قصيرة بنوتات اربع على القرار الموسيقي تتسم جميعها بطابع القوة الرهيب . والنوتة الثانية والثالثة منها متصلتان اما الاولى والرابعة فمنفصلتان عن ما بعدها وما قبلها . بهذه النوتات الاربع مع الاولى الطويلة صور بتهوفن عهداً رهيباً من الذل والعبودية ورسم لنا فيه شخصية الطاغية « الفا » بعد هذا انتقل الى حوار هادىء تتبادله كل من الكلارنيت والابوا يخاله السامع كأنه مناقشة واستعداد لخوض امر خطر ، ولا يلبث هذا ان يتم حين تشترك مجموعة الاوركسترا بنوتات متلاحقة وسريعة تبدأ هادئة وتأخذ في العلو تدريجياً ثم تعقبها نوتة واحدة طويلة تنفجر بها الاوركسترا معلنة ظهور « اغمونت » وتتابع الانغام بعد هذا وتتلاحق تارة في هدوء واخرى بصخب جامح مروع ومعبر عن ثورة الشعب ضد الطاغية الفا، ثم فجأة يرين صمت قاتل يتبعه لحن حزين ينبيء بالقبض على البطل واعدامه وكما هدأت الموسيقى فجأة تعود من جديد من اقصى الخفوت الصوتي للموسيقى الى اقصى الارتفاع لها وتتوالى متعاقبة يجر بعضها بعضاً حتى تطغى على اللحن الهادىء الحزين . وهذه اللفتة السريعة تعبر عن الم الشعب وثورته ضد هذا العمل وقضائه على الدوق الفا .. ان هذه القطعة المليئة بتصوير المشاهد البطولية المثالية المتفانية هي التي كان بتهوفن نفسه يحلم بها .

الوفاء الزوجي او ليونوره

قرأ بتهوفن هذه القطعة فاستهوته وهي تدور حول فارس اسباني اسمه « فلورستان » يرميه عدوه الشرير « بيزادو » في غياهب السجن ثم يحاول الفتك به ، غير ان زوجة فلورستان « ليونوره » تلتحق بعد ان تتنكر في زي غلام يخدم السجن منتحلة اسم « فيدليو » حيث تستطيع مراقبة عدو زوجها دون ان يشعر بها فتحبط مؤامراته ضد زوجها ، حين علم الحاكم بامر هذه المكيدة المدبرة من بيزارو يهرع لانقاذ ليونوره وزوجها من انتقام بيزارو الشيطان في اللحظة الحاسمة ثم يودعه السجن .

لهذه الاوبرا اليتيمة ثلاث افتتاحيات باسم ليونوره واربعة باسم فيدليو وقد اشتهرت ليونوره الثالثة من بينها دون غيرها ، وهذا ان دل على شيء انما يدل على ان بتهوفن توخى الكمال الفني في تأليف هذه الافتتاحية حتى جاءت ليونوره الثالثة معلنة انتصاره في استجلاء الغامض منها واستدراك المعنى التام لها .

التحليل

تبدأ هذه الافتتاحية في مطلعها بطيئة ثم تأخذ بالتسارع في لحن الاغنية التي يغنيها فلورستان في سجنه ثم يتجاوب الاسماع لحنان اساسيان يرمزان الى الزوجين التعيسين حتى اذا امتزجا وحدث التفاعل المطلوب في شكل السوناتا . اضاف بتهوفن لحن بيزارو المنتقم فيظهر قوياً شديداً حتى يضيع اللحن الاول الممثل للزوجين ، ولقد رمز بتهوفن بلحن بيزارو هذا على مكائده وتغلبه على فلورستان ثم يبدو في نهاية الافتتاحية تقريباً صوت الابواق صادراً من بعيد، وتشبه في انغامها نشيداً عسكرياً عنى به بتهوفن الحاكم الذي علم بالامر . ثم يعلو النشيد تدريجياً حتى يمتزج مع الاوركسترا بلحن التحرير الختامي ، ثم يعود اللحنان الاولان اللذان يرمزان للزوجين فيتجاوبان برهة حتى يطغى لحن فلورستان على لحن ليونوره كأنه يقدم الشكر بالامتنان لزوجه المخلصة مباهياً ومفتخراً بها .

هذا تحليل بسيط لهذه الافتتاحيات الرائعة قدمناه للقارىء اردنا به ان يكون مدخلا الى الموسيقى العالمية .

دمشق — صميم الشريف